علم التفسير
في كتابات المستشرقين

أ.د.عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس
بكلية الآداب– جامعة القاضي عياض– في المغرب

ملخص البحث

موضوع هذه الدراسة هو "علم تفسير القرآن في أدبيات المستشرقين"، وحتى يكون البحث في هذا المجال مستوفيا لشروطه فقد اهتم بجوانب ثلاثة تشكل لباب الموضوع :

الأول : الموارد التي نرجع إليها فيما يتصل بالوقوف على مادة "البحث"، ويأتي في مقدمة تلك الموارد عددا من اصدارات "دائرة المعارف" على تعدد أسمائها وطبعاتها ... ثم في المرتبة الثانية هناك مجموعة من مؤلفات المستشرقين عن القرآن والتفسير مما له مكانة متميزة عند الغربيين.

الثاني : مضمون ما كتبه المستشرقون عن "علم التفسير" خاصة ؛ فالمطلع على تراثهم لا بد أن يستوقفه اهتمامهم بالإتجاهات المنحرفة التي شهدها تاريخ هذا العلم ... لكنها ظلت نسيا منسيا حتى جاء القوم فأرادوا بعثها لغايات تطرقت إليها هذه الدراسة ...

الثالث : المنهج الذي تبناه معاصرو المستشرقين وأرادوا الترويج له في مجال الدراسات القرآنية، وهذا منهج غريب عن علم التفسير، التقطوه من البيئة التي يعيشون فيها بالغرب وهو إضافة لذلك لا يحمل في طياته أبسط شروط "المنهج العلمي" المنضبط...

والغريب في الأمر أن المستشرقين ظلوا منذ بداية القرن العشرين يطرحون مشاريع لدراسة علم التفسير كانت مجرد نظريات أو فرضيات بعيدة عن التطبيق حتى وسط دوائرهم الخاصة مما يثير الشكوك حول أهدافهم وراء الاشتغال بعلم تفسير القرآن وتاريخه ومنهجه.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمــــا بعــــد،

فتسعى هذه الدراسة إلى تتبع كتابات المستشرقين عن موضوع " تفسير القرآن الكريم "

وذلك في محاولة لجمع آرائهم المختلفة وتقييمها في ميزان العلم، وهي تبعا لذلك لا تهتم بتآليف المستشرقين المرتبطة بعلم القراءات أو بتاريخ المصحف الشريف أو بغير ذلك من العلوم المرتبطة بكتاب الله تعالى مما لا تعلق له بموضوع التفسير...

أما أهمية هذا الموضوع فتظهر بالنظر إلى أمرين :

- أن موضوع " التفسير في تأليف المستشرقين " لم يظفر بشيء من الدراسة العلمية ...، فباستقراء مختلف ما نشر عن المستشرقين والقرآن الكريم، نجد أكثر الجهود تصرف للرد والتعقيب على مختلف المطاعن المتكررة التي يرددها المستشرقون عن " جمع القرآن " وعن " القراءات القرآنية " وعن " أسباب النزول وترتيب السور " وعن "ربانية مصدر القرآن" ...، ومن النادر أن تلفت هذه الجهود إلى موضوع التفسير بحد ذاته، ولعل أطروحة د.عمر رضوان وموضوعها " آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره" أقرب مساهمة إلى موضوع هذا البحث وهي مطبوعة بدار طيبة في الرياض.

- كما تظهر أهمية هذا الموضوع بالنظر إلى أن اهتمام المستشرقين بعلم التفسير هو وليد القرن العشرين، فلم يسبق للكتابات الاستشراقية أن تعرضت لمناهج التفسير ولا "لتقويم " التراث التفسيري إلا ابتداءا من مستهل هذا القرن الميلادي الذي أفل ... وموضوع " تفسير القرآن في تأليف المستشرقين " تبعا لذلك جد حديث.

هذا وقد قسمت هذه الدراسة إلى أربعة مباحث، يسبقها مبحث تمهيدي خصص المبحث الأول منها للكلام عن المنشورات التي أصدرها المستشرقون وعرضوا فيها آراءهم الخاصة المتعلقة بتفسير كتاب الله تعالى.

والمبحث الثاني أفرد لجهود المستشرقين من أجل هدم ونقض علم التفسير، بخاصة تراث عموم أهل السنة ...

والمبحث الثالث كان عرضا تحليليا للطريقة التي يسعى المستشرقون لنشرها حتى تصبح المنهج المعتمد لفهم القرآن وتفسيره.

أما المبحث الأخير فهو مخصص لتقييم كتابات المستشرقين وارائهم بخصوص علم التفسير.

هذا ولم يسعني في هذه الدراسة أن أتكلم عن تآليف تلاميذ المستشرقين من أبناء المسلمين المتصلة بالموضوع لأن ذلك سيحتاج لدراسة مستقلة.

نسأل الله تعالى العون والسداد والرشد، وأن يعلمنا ما ينفعنا في الدنيا والآخرة، والله من

وراء القصد.

* * *

مبحث تمهيدي

إنه مما لا خلاف فيه أن كتابة المستشرق عن القرآن وتفسيره لم تكن في يوم من الأيام بغرض تقريبه ممن لا ينطقون العربية أو بهدف التعريف بدين الإسلام أو بغرض نشر ثقافة صحيحة عن هذا الدين ... وإنما كانت جهود المستشرقين تنفق لغايات أخرى يتستر عليها بمصطلح " البحث العلمي " و " الأكاديمي" ...

ولو تتبعنا ما حرره المستشرقون عن القرآن خلال قرون، وما نشروه عن التفسير منذ مطلع القرن العشرين، ما كنا نحتاج إلى كبير عناء وبحث لكي نصل إلى المعتقد الذي ظل يحكم تعاملهم مع الدراسات القرآنية وهو قناعتهم التقليدية ببشرية كتاب الله تعالى، والمستشرق – وقد أشرب إنكار ربانية القرآن – يسعى بدهاء كي يبرهن من خلال كتاباته على هذا المعتقد، يستوي في ذلك متعصبتهم ممن يكشفون عن أراجيفهم علانية مع أولئك المستشرقين الذين قادهم الدهـــاء إلى تغليف دعاويهم – ببشرية القرآن – بشتى الأساليب الملتوية[١]

المطلب الأول : القرآن الكريم في تصورات المستشرقين

لعله مما تقتضيه الموضوعية العلمية والإنصاف أن نشير في هذا المطلب إلى مدى التصاق المستشرقين بآرائهم وتصوراتهم الذاتية التي يضفونها على مواد كتابتهم، ثم إنهم لا يرون في عملهم ذاك إخلالا " بالموضوعية " أو انحرافا عن جادة " البحث العلمي " ... ومن أبرز ما يظهر ذاتية المستشرقين في مختلف كتاباتهم عن الإسلام تلك المواد التي حرروها " لدائرة المعارف الإسلامية " التي صدرت طبعتها الأولى بين ١٩١٣– ١٩٤٢ م بثلاث لغات أوربية، وبإمكان القارئ العربي أن يطلع على طائفة من تلك المواد في الأجزاء المترجمة لهذه " الدائرة "، حيث يلاحظ أن المترجمين اضطروا إلى إدراج تعليقات هامشية على الآراء التي " تقصدها " محررو دائرة المعارف والأخطاء العلمية والتهم الواهية التي تضمنتها المواد المحررة من قبل المستشرقين، فعلق على مادة " حديث " الشيخ أحمد شاكر رحمه الله، كما نجد تعاليق غيره كمصطفى عبد الرزاق وإبراهيم مذكور على مواد أخرى، وأحيانا يكون التعليق أطول من المادة بكثير.

والأمر لا يقتصر على " دائرة المعارف الإسلامية " هذه فحسب، بل أن المستشرقين حرروا

المواد المتصلة بالقرآن والتفسير في غيرها :

- **" كدائرة معارف الديانات والأخلاق " (٢)**
- **"و دائرة المعارف الكونية " (٣) □□**
- **ودائرة المعارف البريطانية"،(٤)وهذا دون الكلام عن"أطلس الديانات"... ونظراً لأن هذه المؤلفات غدت في السنوات الأخيرة مصادر علمية معتمدة عند الغربيين وعند طائفة من الدارسين المسلمين، فمن الأفضل الرجوع إليها أولاً للوقوف على تصورات المستشرقين بخصوص القرآن. (٥)**

ففي النشرة الحديثة " لدائرة المعارف الإسلامية " الصادرة بالفرنسية عام ١٩٨١م وأعيد طبعها ١٩٨٦، نجد المستشرق " ويلتش " محرر مادة " قرآن" يقول في المبحث الذي عنونه بـــ "محمد والقرآن" :

"... اعتبارا لوجهة نظر أهل السنة- (الارثذوكس)(٦)- فإن القرآن تلقاه محمد من الله وحيا عن طريق جبريل بدون أن يكون فيه دخل لأحدهما، لكن تحليل نص القرآن يبين وضعيته المركبة، ففي المقاطع الأولى منه ليس هناك ما يدل على مصدره...، وفي مقاطع غيرها لا يوجد ما يدل على ربانية الرسالة، وفي أخرى يظهر أن محمدا هو الذي يتكلم، بل تضمن القرآن مقاطع وردت فيها الإشارة إلى إله محمد بضمير الغائب... أن هناك آيات مدنية كثيرة تشعرنا بأن محمدا يبحث بفعالية من أجل استقاء معلوماته عن اليهود...؛ وفي هذه المقاطع لا يصعب علينا أن نرى محمدا يأخذ قصصا ومعلومات من مصادر متعددة بخاصة من اليهود والنصارى ثم يعيد صياغة ذلك في القرآن... "(٧)

أما في النشرة الفرنسية " لدائرة المعارف الكونية " الصادرة عام ١٩٩٠م، فإننا نجد المستشرق كلود كايو- حين كتب عن تفسير القرآن- يصرح في مبحث عقده للكلام عن " تشكيل متن القرآن " بأن المصحف تشكل من آراء الفقهاء وفتاويهم خلال القرون الثلاثة الأولى، وعبثا عمد كايو إلى اقتباس آراء طائفة من المستشرقين الذين تبنوا هذا البهتان ليخلص في نهاية كلامه إلى استنتاج مفاده أن " اختلاف مرويات القرآن التي تلقاها أصحاب محمد- بخاصة القراءات الشاذة والمشهورة- يرجع في أصله إلى الحاجة لإدراج حواشي وشروح تتضمن تشريعات قديمة لنص لم يتم الانتهاء من جمعه قبل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي"(٨).

والذي يتتبع كتابات المستشرقين عن الموضوع يقف على تصورهم الخاص الذي دافعوا عنه

لتأكيد بشرية مصدر القرآن، لذلك حين كتبوا عن القرآن نظروا إليه على اعتبار أنه " أثر أدبي محض"، وقد وجد من بينهم من اعتبره دون التراث الأدبي العربي القديم كما هو الحال مع شيخ المستشرقين تيودور نولدكه في رسالته " ملاحظات نقدية حول الأسلوب والتركيب في القرآن "[(٩)] . تماشيا مع هذا التصور الذي ينكر ربانية القرآن، وجدنا المستشرقين يدمجون دراساتهم المتصلة بكتاب الله ضمن مؤلفاتهم عن تاريخ الأدب العربي [(١٠)]، كما وجدناهم مستغرقين في البحث عن الترتيب النزولي للقرآن حتى يعيدوا كتابة مصحف جديد لأنفسهم ! ![(١١)].

المطلب الثاني : بدايـــة اهتمـــام المستشرقين بالتفسيـــر

اتجه المستشرقون إلى " تحقيق" بعض كتب التفسير في فترة مبكرة من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث حقق الألماني فرايتاج تــ ١٨٦١م " أسرار التأويل وأنوار التنزيل " ونشره في ليبزيج عام ١٨٤٥م، وحقق الإنجليزي ويليم ناسوليز ت ١٨٨٩م تفسير " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " ونشر الألماني أدولف جروهمان " عيسى في القرآن " ضمن " الجريدة الشرقية " ١٩١٤م، ونشر رافلين " القانون في القرآن " عام ١٩٢٧م، ونشر جوتين " الصلاة في القرآن " ١٩٥٥م...

أما فيما يتعلق بمناهج المفسرين واتجاهات التفسير – وهو موضوع اهتمامنا – فقد اتجه إليه المستشرقون منذ مطلع القرن العشرين، وتوسعت دائرة اهتمامهم به في منتصف هذا القرن...

فنشر الإنجليزي هورسفيلد " بحوث جديدة في نظم القرآن وتفسيره " بلنـــدن ١٩٠٢م، ونشر الفرنسي كليمان هوار " وهب بن منبه والتراث اليهودي النصراني باليمن " ضمن الجريدة الأسيوية في باريس ١٩٠٤م، ونشر اجنتس جولد تسيهر ت ١٩٢١م كتابه " مذاهب التفسير الإسلامي"، ونشر ريتشارد هارتمان " تفسير القرآن " في مجلة الدراسات الشرقية ١٩٢٤م، ونشر الإيطالي جويدي " شرح المعتزلة للقرآن " ١٩٢٥م، وكتب آرثر جفري " أبو عبيدة والقرآن " نشر في عالم الإسلام ١٩٣٨م ...

وابتداء من منتصف القرن العشرين بدأت دراسات المستشرقين عن مناهج واتجاهات التفسير تأخذ بعدا آخر انطبع بطرق دراسة التوراة والأناجيل في البيئة الغربية، فأصدر جاك جويمر " تفسير القرآن عند مدرسة المنار " ١٩٥٤م، كما نشر عن " الطنطاوي جوهري وتفسير الجواهر "، ونشر ج. باجون بلندن " تفسير القرآن في العصر الحديث " عام ١٩٦١م، ونشر ب نوييا " التفسير

القرآني واللغة الصوفيـة " ١٩٧٠م، ونشرت ترجمة " القرآن : نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره " لبلاشير ١٩٧٤م، ونشر ويلتش " القرآن وتفسيره " بلندن ١٩٧٦م، ونشر جون منوت " مدخل إلى التفسيـر" ١٩٨٢ (١٢) ؛ ونشر بروما ١٩٨٤– ١٩٨٥ ضمن ملفات " الدراسات العربية" مختارات من كتابات المستشرقين عن " تفسير القرآن "(١٣) ، ونشر كلود كايو ضمن النشرة الإنجليزية لدائرة المعارف الكونية " تفسير القرآن " و " القرآن في ضوء الدراسات المعاصرة "(١٤)، ونشر جاك بيرك " قراءة جديدة للقرآن ...(١٥).

ومما تجب الإشارة إليه في هذا الصدد أنه بدأ في العقود الثلاثة الأخيرة يغلب على دراسات المستشرقين منحى يرى ضرورة إخضاع تفسير القرآن لمناهج التحليل في العلوم الإنسانية(١٦)، وهكذا في مرحلة أفول حركة الاستشراق انتهى الحال بالمستشرقين إلى البحث عن وسائل لإعادة إحياء ماضيهم التاريخي عن طريق المطالبة بتطبيق مناهج العلوم الإنسانية – التغريبية – على القرآن في أفق البحث عن " تاريخ القـرآن " ثم إعـادة " قراءته " أو تفسيره من جديد ! ! (١٧)

المطلب الثالث : أسباب اهتمـام المستشرقيـن بالتفسيـر ودواعيـه

سبقت الإشارة إلى أن اهتمام المستشرقين بمناهج المفسرين واتجاهات التفسير كان وليد القرن العشرين :

ظهر في مستهله ...

وتوسع في منتصفه ...

وكثرت كتابات المستشرقين عن التفسير خلال السبعينات وأوائل الثمانينات ..

وتراجع هذا الاهتمام الآن بسبب هلاك مشاهير أساتذة الدراسات الشرقية بالغرب وقلة المهتمين بهذا المجال بين الباحثين الأوروبيين الناشئين، مما ضاعف أزمة الحركة الاستشراقية التي مازال أقطابها الأحياء يبحثون عن وسائل إنعاشها(١٨).

هذا وقد ألمح المستشرق الفرنسي بلاشير في مقدمة أحد كتبه إلى أن اهتمام المستشرقين بالقرآن : ترجمة ودراسة ... كان موجها لغاية أساسية هي فهم البيئة الإسلامية ومعرفة العالم الإسلامي(١٩)، وهذه " المعرفة " هي التي سيؤسس عليها الغرب طريقة التحكم في الشعوب الإسلامية وتوجيهها، لكن بعد عقود من الجهود المضنية ظهر أن المخططات الغربية أخطأت الطريق، فأراد المستشرقون تصحيح المسار بما يثبت أقدامهم في حقل الدراسات الإسلامية ،

ويمكنهم من الإسهام بشكل أو بآخر في توجيه المسلمين؛ وأدى بهم ذلك إلى أن يجعلوا أنفسهم أندادا لأئمة تفسير القرآن، وظهرت ابتداء من عقد السبعينات طائفة من الكتابات الاستشراقية التي تدعي إعادة " قراءة " القرآن الكريم[٢٠].

ولعله مما ساهم في بلورة موقف المستشرقين من علم التفسير تلك النزعة التي أوجدها التيار البروتستانتي داخل الكنيسة الغربية، فإذا كان هذا التيار قد بنى دعوته " للتجديد الديني" في أوربا على اعتبار أن فهم الدين و " الكتاب المقدس" ليس وقفا على رجال الكنيسة وحدهم وإنما يتجاوزهم إلى غيرهم ممن أوتوا " سعة في الأفق... " فلماذا يبقى تفسير القرآن خاصا بعلماء الإسلام وأئمة الدين من علماء المسلمين ؟ ؟ ؟

من هنا ابتدأت تلك الدعـــــوى النشاز إلى دراسة القرآن دراسة أدبية " كما تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة، وتلك الدراسة الأدبية لأثر عظيم كهذا القرآن هي ما يجب أن يقوم به الدارسون أولا، وفاء بحق هذا الكتاب، ولو لم يقصدوا الاهتداء به أو الانتفاع بما حوى وشمل، بل هي ما يجب أن يقوم به الدارسون أولا ولو لم تنطو صدورهم على عقيدة ما فيه، أو انطـــــوت على نقيض ما يردده المسلمون الذين يعدونه كتابهم المقدس... " [٢١]

بمثل هذه الدعوى تمسك المستشرقون المعاصرون، فدعوا إلى تغيير أصول تفسير القرآن وقواعده وآدابه، وتبنوا موقفا " هدميا " من مختلف مصنفات التفسير التي كتبها وجمعها الأئمة الأعلام، ثم وضعوا لأنفسهم " منهجا " غريبا أرادوا أن يخضعوا له علم التفسير آملين أن يعيدوا صياغة إسلام متطور وتفسير للقرآن خاضع للأهواء – " متعدد في وحدته " حسب تعبير جاك بيرك– وسيتم التعرض " لمنهجهم" في مبحث لاحق[٢٢].

المبحث الأول : منشـــورات المستشرقين المتصلة بدراســـة التفسير

نشط المستشرقون في أعمال النشر بدرجة قل نظيرها، ويمكن القول بأن المجال الذي نجح فيه هؤلاء ليس هو مجال البحث العلمي، ولا هو ميدان التكوين، ولم ينجحوا أيضا في مجال الاختراق الثقافي والعقدي... ، وإنما نجحوا في ميدان النشر والتوزيع على نطاق واسع.

ونظرا للامكانيات المادية والمعنوية التي ترصد لهم والمجامع التي يعملون في إطارها فلازالوا يستطيعون نشر أو إعادة نشر كتاباتهم وأيضا ترجمتها سواء كان ذلك بالغرب أو بالبلاد الإسلامية نفسها [٢٣] .

وبخصوص كتاباتهم عن التفسير فقد كانت متنوعة :

فهناك التآليف المستقلة ...

وهناك الأبحاث والمقالات التي تقدم للمؤتمرات أو تنشر ضمن مختلف الدوريات العالمية .. وأخيرا هناك تلك المواد المحررة لمختلف إصدارات " دائرة المعارف ".

المطلب الأول : التفسيـــر في التآليف الفرديـــة الخاصـــة

وتشمل هذه التآليف نوعين من الكتابات :

النوع الأول : يتضمن الرسائل والأطروحات التي تقدم للجامعات من أجل نيل الدرجات العلمية (٢٤).

والنوع الثاني – وهو الأهم – الدراسات التي يؤلفونها ويروجون لها حتى تصبح مصادر لأخذ المعرفة في موضوع التفسير رغم ما احتوته من أوهام، وأحيانا يتجاوز الأمر البيئة الغربية لنجد لهذه المؤلفات " مصداقية " علمية حتى في العالم الإسلامي، فتطبع هذه الكتب وتترجم ويستدعى أصحابها ليحاضروا في المؤسسات العلمية الإسلامية ...

ومن أشهر دراسات المستشرقين عن التفسير ومن أكثرها تداولا كتاب اجنتس جولد تسيهر ت ١٩٢١ م عن " مذاهب التفسير الإسلامي " الذي ترجم إلى العربية مرتين، الأولى قام بها د. علي حسن عبد القـــادر، والثانية أنجزها د. عبد الحليـــم النجار عام ١٩٥٤م ، وقد كان هذا الكتاب ولازال من المراجع الرئيسة التي يرجع إليها الدارسون رغم تعصب مؤلفه ضد الإسلام والقرآن ورغم الكثير من الأخطاء العلميـــة والجهـــالات التي تعمدها المؤلف (٢٥) ، فضلا عن ذلك نجد لكتاب " مذاهب التفسير .. " مكانة فريدة في أوساط المستشرقين، كما نجد لصاحبه سمعة " علمية " مصطنعة، حتى أننا نصادف المستشرق جوينبل محرر مادة (حديث) في " دائرة المعارف الإسلامية " يعتبر العلم مدينا دينا كبيرا لما كتبه جولد تسيهر (٢٦)؛ ونجد المستشرق كراديفو محرر مادة (تفسير) – في نفس الدائرة – يستظهر بأقواله (٢٧)، ولازالت افتراضاته الخاطئة في هذا الكتاب تؤخذ على أنها مسلمات علمية حتى الآن، بعد كتاب جولد تسيهر تأتي في الدرجة الثانية تآليف المستشرق الفرنسي ريجس بلاشير تـــ ١٩٧٣م، وقد اكتسبت كتابات هذا الرجل عن التفسير قيمتها وسط دوائر المستشرقين والمستغربين لأسباب ثلاثة :

الأول : طول مدة إقامته في العالم الإسلامي، بخاصة في المغرب واشتغاله هناك وكان خلال

سنوات مهتما بالأدب وفيه أنجز أطروحته عن المتنبي.

السبب الثاني : كثرة تلاميذه من أبناء المسلمين في المشرق و المغرب، حيث أشرف على العديد من الرسائل التي أنجزها الطلبة العرب بالجامعة الفرنسية ...

السبب الثالث الذي أضفى عليه المصداقية العلمية دخوله للمجامع العلمية العربية ، وقد اشتهر من كتاباته عن القرآن " مدخل إلى القرآن " بالفرنسية، لكن أوسع ما ألفه عن التفسير تلك المباحث التي كتبها عن الموضوع ضمن الجزء الثاني من " تاريخ الأدب العربي "، وقد استلت من الكتاب الأصلي ونقلها إلى العربية " رضا سعادة " وصدرت طبعتها الأولى ١٩٧٤م وهي نفسها المنشورة ضمن " دائرة المعارف الكونية " في المبحث الأول لمادة (قرآن)[٢٨] .

المطلب الثاني : التفسيــــر في " دائرة المعارف " الاستشـــراقية

تقوم فكرة " دائرة المعارف " على جمع مختلف المعلومات المتعلقة بمجال معين كالآداب والتاريخ والطب ... ثم ترتيب المواد التي تم جمعها، والقيام بتحريرها مع مراعاة التركيز والاختصار دون الإخلال بما يتطلبه الإلمام بالمادة.

وقد ظهرت فكرة كتابة " دائرة المعارف الإسلامية " في مؤتمر المستشرقين العاشر بسويسرا عام ١٨٩٤م، لكن لم يتم البدء في إصدار أجزائها إلا عام ١٩١٤م، وتوالي صدور هذه الأجزاء حتى عام ١٩٤٢م حيث اكتملت بثلاث لغات هي الفرنسية والألمانية والإنجليزية، وفي المؤتمر الحادي والعشرين للمستشرقين – باريس ١٩٤٨– تم إقرار مشروع الطبعة الثانية المنقحة لهذه الدائرة [٢٩]، وقد وجدت " دائرة المعارف الإسلامية " رواجا في العقود الأخيرة، فصدرت الطبعة الفرنسية المنقحة كاملة في الستينات وأعيد طبعها عام ١٩٨١م ثم بعد ذلك عام ١٩٨٦م، هذا دون عد ما صدر منها بالإنجليزية. أما الترجمة العربية لهذه " الدائرة " فقد اعتمدت على مواد الطبعة الأولى، وتوقفت الترجمة عام ١٩٦٥م عند حرف الطاء دون اتمام جميع المواد.

فضلا عن " دائرة المعارف الإسلامية " هذه نجد المستشرقين يستأثرون بتحرير المواد المتعلقة بالإسلام والعلوم الإسلامية في مختلف " دوائر المعارف " التي صدرت بشتى اللغات في مختلف الدول وأهمها :

- "دائرة معارف الديانات والأخلاق " [30]
- " دائرة المعارف البريطانية الجديدة " بالإنجليزية [31]

- " دائرة المعارف الكونية " الصادرة بأكثر من لغة ...

أما عن موضوع التفسير في هذه المنشورات :

فقد كتب مادته في " دائرة المعارف الإسلامية " الأولى المستشرق كاراديفو، وما حرره في هذه المادة كان جد تافه كرر فيه كلام المستشرقين المتعصبين جولد تسيهر وهنري لامنس. وترجمت هذه المادة ضمن " دائرة المعارف الإسلامية "(32) ومعها تعليق أمين الخولي.

أما في الطبعة الثانية المنقحة من " دائرة المعارف " – هذه– فقد صدر الجزء الأول من الطبعة الفرنسية منها عام ١٩٦٠م، ولجأ المستشرقون إلى التوسع في موادها إلى درجة أن مادة (قرآن) التي حررها المستشرق ويلتش تضمنت تسعة فصول بمباحثها، وجاءت في واحد وثلاثين صفحة من القطع الكبير المكتوب بخطوط دقيقة(33)، هذا دون الكلام عن الذيول المرفقة بالمادة التي حررها مستشرق آخر، وفي هذه الطبعة نجد مباحث عن اللغة والأسلوب في القرآن(34) وعن التعـــبير الأدبي في القرآن (35)وعن القرآن في حياة وفكر المسلمين(36) ...

أما في " دائرة معارف الديانات والأخلاق" فقد حرر مادة (تفسير) الألماني شلاير ماخر، حيث كتب عن المادة من منظور وضعي، إذ لا فرق عنده بين تفسير القرآن وشروح التوراة والأناجيل وسائر النصوص الأدبية الصرف(37) ، وقد اقتبس منه امين الخولي آراءه في الموضوع، ظهر ذلك جليا فيما حرره الخولي تعليقا على كاراديفو في " دائرة المعارف الإسلامية "(38).

أمـــا فـــي " دائرة المعارف البريطانية الجديدة " فنجد في فصل " محمـــد وديـــن الإســـلام "(39) مبحثا عن القرآن ضمنه محرر الفصل مطلبين موجزين عن تفسير القرآن وعن الاتجاهات الحديثة في التفسير مع مدرسة محمد عبده (٤٠)

أما في " دائرة المعارف الكونية " فنجد مادة (قرآن) مقسمة إلى مباحث ثلاثة الأول منها عن " رسالة القـــرآن " مـــن تحرير بلاشيـــر والثاني عن " تاريخ التفسير " والثالث عن " القرآن والدراسات المعاصرة " وكلاهما من تحرير كلود كايو، ولا نجد في المادة كلها إلا امتدادا لذلك التراث الاستشراقي بإسقاطاته وتعصبه(٤١).

المطلب الثالث : التفسيـــر في الـــمجلات والدوريـــات الاستشـــراقية

دأب المستشرقون على كتابة المقالات والدراسات في شتى المناسبات : كالمشاركة في الندوات والمؤتمرات أو الأيام الدراسية أو في ذكرى تأبين أحدهم أو في الاحتفال بمؤسساتهم و جمعياتهم، وقد تكون هذه المشاركة عبارة عن ورقة بحث أو محاضرة أو مداخلة مرتجلة، وبسبب حرص المستشرقين على توثيق أعمالهم، فقد كانت جميع كتاباتهم تأخذ طريقها إلى النشر بمجرد تحريرها.

ولعل أهم وسائل النشر التي استفادت منها الحركة الاستشراقية : الجرائد والمجلات والنشرات.

فالجرائد الاستشراقية قد تصدر كل ثلاثة أشهر ، ويشكل كل أربعة منها مجلدا. أما المجلات فهي – غالبا – مطبوعات دورية مختصة بمجال محدد من مجالات الدراسة، وقد تكون المجلة شهرية أو فصلية أو نصف سنوية أو حولية حسب انتظام صدور أعدادها.

أما النشرات فهي مطبوعات يكون غرضها الرئيس هو التعريف بالمعهد أو المؤسسة أو الجمعية أو النشاط ...

لكن البحث عن موضوع معين في هذه المطبوعات ليس عملا سهلا ميسورا لكثرتها واختلاف لغاتها وندرة العديد منها إلا في المراكز العلمية المجهزة، هذا فضلا عن كون الفهارس التي أحدثت لهذه المطبوعات لا تفي دائما بالغرض لتشعب الموضوعات وتداخل تخصصاتها ...

وبالنسبة لموضوع التفسير فإن ما يجب على الباحث معرفته بهذا الخصوص : أن يلم أولا بأسماء المستشرقين الذين كتبوا في هذا الموضوع، فأحيانا يكون عنوان المقالة خادعا، وأعطي مثالين لذلك اعتمادا على ما نشر ضمن " الجريدة الأسيوية " التي تصدر بباريس منذ ١٨٢٢م حتى يومنا الراهن.

ففي المجلد الرابع من السلسلة العاشرة من " الجريدة الأسيوية " عدد شتنبر – أكتوبر ١٩٠٤م نشر كليمان هوار مقالته المطولة عن " وهب بن منبه والتراث اليهودي النصراني باليمن "، وهذه المقالة تعرض بعلم التفسير، وخلص كاتبها في خاتمته إلى الطعن في " جامع البيان " لأبي جعفر بن جرير الطبري ت. ٣١٠هـ [٤٢].

وفي نفـــــس الجريــــــــدة عدد ٢٦١ الصادر ١٩٧٣م نجد دراسة عنوانها "

الدراسات العربية والإسلامية "، قدمها – في الأصل – كلود كاهن وشارل بيلا لمؤتمر المستشرقين المنعقد في باريس خلال نفس السنة، وليس في هذه المقالة – رغم طولها– شيئا خاصا عن الدراسات الإسلامية أو عن التفسير لأن محرريها يهتمان بمجال الأدب فحسب[٤٣]...

واعتبارا لما يقتضيه المنهج من عرض تحليلي لكتابات المستشرقين عن تفسير القرآن، فسيخصص المبحثان التاليان لتصورات المستشرقين لهذا العلم.

فنعرض أولا لمواقفهم من التراث التفسيري المتراكم، حيث أنهم اتجهوا إلى نقض هذا التراث رغم محدودية معرفتهم به.

ثم نعرض ثانيا لدعوة متأخري المستشرقين إلى ما اعتبروه " منهجا علميا جديدا لتفسير القرآن " يعتمد على معطيات العلوم الإنسانية كما هي بالغرب ...

وتبعا لذلك، فإن تصورات المستشرقين وآرائهم في علم التفسير تشمل جانبين :

الأول : جانب هدمي يقصد إلى نقض علم التفسير جملة وتفصيلا

الثاني إنشائي أو تأسيسي يقصد إلى ابتداع طريقة جديدة في التفسير تتناسب مع مؤهلاتهم العلمية وأهدافهم من وراء دراساتهم الإسلامية.

المبحث الثاني : موقف المستشرقين من التراث التفسيري المتراكم

تحكمت في توجيه كتابات المستشرقين عن مختلف التفاسير عدة عوامل :

- فهناك أولا تعاطفهم مع مختلف الفرق المنحرفة التي شهدها تاريخ الفكر الإسلامي.
- ثم هناك معاداة جمهورهم لأهل السنة ولأئمة الإسلام الذين ينتسبون إليهم.
- وهناك تعصب المستشرقين لنصرانيتهم أو يهوديتهم.
- هذا فضلا عن عامل آخر لا يقل أهمية هو غلبة الجهل باللسان على الأغلبية الساحقة من " دارسي " القرآن – العربي المبين – منهم.

المطلـــــب الأول: وقوف مشاهيـــر المستشرقيـــن عند التفاسير المعاصرة.

سبقت الإشارة إلى أن اهتمام المستشرقين بدراسة مناهج التفسير واتجاهات المفسرين توسع في النصف الثاني من القرن العشرين، أما قبل ذلك فمن النادر أن نجد مستشرقا يفرد هذا الموضوع بالكتابة خلا جولد تسيهر وبعض من اقتبس كلامه من المستشرقين.

وحين نرجع إلى "مذاهب التفسير الإسلامي" لجولد تسيهر نجده خصص المبحث الأول عن "المرحلة الأولى للتفسير" للكلام عن القراءات والطعن فيها وجمع طائفة من المغالطات بشأنها، لينتقل بعد ذلك إلى المبحث الثاني عن"التفسير بالمأثور" فلم يأت فيه بشيء على الإطلاق لأن غرضه هدم هذا التفسير "لطغيان الرواية الواهية عليه"، ثم انخرط جولد تسيهر في تفصيل الكلام عن الاتجاهات المنحرفة في التفسير، ويظهر من خلال توسعه في الكلام عنها أنها كانت الغرض الذي لأجله ألف كتابه ...

فأفرد فصلا لما اصطلح عليه" التفسير في ضوء العقيدة" أدرج فيه الكلام عن التفسير عند المعتزلة ...، ثم تفاسير الباطنية قديما وحديثا سواء كان هؤلاء الباطنية من غلاة المنسوبين إلى التشيع (الإسماعيلية) أو من ملاحدة المتصوفة... ثم خصص فصلا آخر لما اسماه " التفسير في ضوء الفرق الدينية " تكلم فيه عن التفسير عند الشيعة الإمامية والإسماعيلية، وأتى فيه بافتراءات كثيرة وافتراضات ساذجة.. وخلط بين مقالات وآراء الإمامية والإسماعيلية بطريقة خبيثة ماكرة ... أما الفصل الأخيـــر فقـــد عنونـــه بـــ "التفسير في ضوء التمدن الإسلامي"، وفيه توسع في الكلام عن التفسير عند محمد عبده وتلاميذه الذين سماهم " المعتزلة المحدثين "، وكل من يقرأ هذا الفصل يرى كيف تتبع جولد تسيهر مختلف القضايا التي خالفت فيها "مدرسة المنار" جمهور أهل السنة في الاعتقاد والتفسير، كما يستشف القارئ تلك العاطفة – غير البريئة – التي غلبت على هذا المستشرق وهو يحرر هذا الفصل !!!

ولما جاء المستشرقون المتأخرون وجدوا جولد تسيهر مهد لهم طريق الكتابة في موضوع " مذاهب التفسير "، ووجدوا في كتابه دليلا يتبعونه في مجال كتاباتهم عن علم التفسير، لكنهم زهدوا في التراث التفسيري القديم الذي اكتفى منه جولد تسيهر بأسماء بعض الكتب، وتوقف هؤلاء المتأخرون عند التفاسير المعاصرة التي لم يعجبهم منها إلا تراث " مدرسة المنار " (٤٤).

فعمد المستشرق جاك جوبمير من رهبان الدومينكان إلى تسجيل موضوع أطروحته

للدكتوراه في السربون في موضوع " مدرسة محمد عبده في التفسير"، وبعد ذلك نشر بباريس عام ١٩٤٥م كتابا عن "تفسير القرآن عند مدرسة المنار"[٤٥]، ثم نشر عام ١٩٥٨م دراسة عن "الطنطاوي جوهري وتفسيره الجواهر" ضمن مختارات معهد الدومينكان للدراسات الشرقية.

بعد جوييير جاء المستشرق ج. بالجوت فألف بالإنجليزية كتابه عن " تفسير القرآن في العصر الحديث " وصدر الكتاب في ليدن عام ١٩٦١م، وهذا المؤلف في جوهره عبارة عن بحث وصفي لما اعتبره الكاتب " مناهج التفسير في زماننا الراهن "[٤٦].

المطلب الثاني : إعلاء شأن التراث التفسيري المنحرف

كان كتاب " مذاهب التفسير الإسلامي " بعد صدوره عن مكتبة بريل في ليدن عام ١٩٢٠م قد وضع للمستشرقين المنهج الذي يجب أن يتعاملوا به مع مختلف أمهات كتب تفسير القرآن، واعتبارا لشخصية جولد تسيهر وأسبقية كتابه، فقد أضحى " مذاهب التفسير الإسلامي " مصدرا لكل الدراسات الاستشراقية عن القرآن وتفسيره ...، فهو منهل المستشرقين المتأخرين يقتبسون منه المادة ويقتفون أثره في المنهج، والغريب أنه رغم فقر الكتاب وتعصب صاحبه ومحدودية قيمته إذا نظرنا إلى مجمل التراث التفسيري الذي فضل جولد تسيهر تجاهله ... إلا أنه مع ذلك كله ظل يلهم المستشرقين الذين كتبوا عن التفسير حتى في نهاية القرن العشرين[٤٧].

وحين نرجع إلى هذا المؤلف الذي تجاوزه الزمن – على الأقل من الناحية العلمية الصرف– نجده – كما سبق– يظهر اهتماما وتعاطفا مع مختلف الاتجاهات المنحرفة التي شهدها تاريخ التفسير.

والمطلع على فهرس موضوعات " مذاهب التفسير " – وان لم يقرأه – يرى أن التفسير بالمأثور لم يستغرق كله إلا سبعا وأربعين صفحة كلها طعن في هذا التفسير المعتمد على الرواية، في حين أن تراث المبتدعة المنسوب إلى علم التفسير – رغم محدوديته – استغرق مائتين وسبع عشرة صفحة.

والسبب الأول لاهتمام جولد تسيهر بهذا التراث المنحرف يرجع إلى ما يراه من أن تفسير طوائف المبتدعة خضع للتأثير الأجنبي، بخاصة تأثير عقائد أهل الكتاب. ففي معرض كلامه عن تفسير المعتزلة قال مشخصا ذلك التأثير :" ... وقد أمكن في وقت مبكر إثبات أن الأنظار والمسائل العقدية التي كانت محل الاعتبار في القرنين الأولين عند علماء الكلام الإسلاميين قد برزت تحت

تأثير النشاط العقدي داخل الكنائس والفرق المسيحية الشرقية، لاسيما في سوريا التي تعد المرحلة الأولى في طريق هذا الاحتكاك"[٤٨] وحين عرض جولد تسيهر لتفسير الباطنية قال :" والحق أن مبادئ ونظريات المتصوفة وإخوان الصفا مشتركة بين كلتا الدائرتين، ومشتركة كذلك- من بعض الجوانب- الوسائل التي يجعلون الإنسان بواسطتها يطمح إلى هدف الكمال أو الخير الأعلى ... وإنما كان ذلك مشتركا بينهما لأن جذورهما جميعا تمتد إلى الأفلاطونيـــة المحدثة وإلى الغنوصية..."[٤٩].

وامتدادا لما درج عليه جولد تسيهر من إعطاء مختلف تفاسير المبتدعة أهمية واضحة، وجدنا المستشرقين من بعده يكدون من أجل إدماج هذا التراث المنحرف الباطل ضمن تاريخ التفسير، ثم تقديمه على أنه النموذج الأمثل لتفسير القرآن[٥٠] . وفي سبيل تلك الغاية وجدنا الدهاء الاستشراقي بلغ أوجه مع المستشرق ريجس بلاشير الذي أجهد نفسه كثيرا من أجل إثبات ما رآه أصلا من أصول التفسير مقررا " ... أن التفسير في مبدئه بالذات يقر بالقيمة النسبية للشروحات، خاصة عندما تتعلق هذه الشروحات بمقاطع شديدة الغموض، لقد قبلت التفسيرات المتعددة كما قبلت القراءات المتعددة، شرط أن تنال هذه التفسيرات تأييد الإجماع، هنا نجد موقفا فكريا يمدنا بمفاهيم غير متناهية لفهم القرآن في ضوء التطور التاريخي"[٥١].

هكذا يدافع بلاشير وبعده جاك بيرك وغيرهما عن مبدأ تعدد معاني القرآن واحتماله لكل تفسير في محاولة لإدماج كل تراث الفرق الضالة من باطنية وغيرها ضمن علم تفسير القرآن الكريم.

وانطلاقاً من هذه الرغبة الجامحة لإعلاء التراث المنحرف اتجهت كتابات المستشرقين إلى بعث آثار المبتدعة المنسوبة إلى التفسير، وليس من قبيل المصادفة أن يكتب نوبيا عن "التفسير القرآني واللغة الصوفية" أو أن تخصص" دائرة المعارف البريطانية الجديدة " فقرات عدة للكلام عن التفسير في القرون الوسطى عند المتكلمين والمتصوفة[٥٢] ووصل الأمر أن وجدنا هؤلاء المستشرقين يحتفلون حتى بالكتابات المعاصرة التي سارت على منهج المبتدعة، وغير خاف على المتتبع لهذا الموضوع طريقة استقبالهم لأطروحة محمد أحمد خلف الله عن " الفن القصصي في القرآن "...

المطلب الثالث : نقـــد المستشرقيـــن لأمهـــات التفاسيـــر

ليس المقصود بالنقد في هذا المطلب "التقييم" أو ما شابه ذلك من المعاني، بل القصد إبراز

مطاعن المستشرقين في مختلف كتب التفسير بخاصة أمهات الكتب؛ فمنذ بداية القرن العشرين لم تدخر الحركة الاستششراقية جهدا للنيل من هذه الأمهات، ومن ذلك أن كليمان هوار ت ١٩٢٧م – وكان موظفا في إدارة المستعمرات الفرنسية – نشر مقالة في " الجريدة الأسيوية " عام ١٩٠٤م انتهى فيها إلى ادعاء بأن كتب التفسير منتحلة من تراث أهل الكتاب، وخلص في مقالته إلى القول :

" أن مقاطع كثيرة من تفسير الطبري ... مرتبطة بمثلها في (سفر التكوين) الذي يعرض للروايات اليهودية والنصرانية، وكان وهب بن منبه هو الطريق الذي انتقلت بواسطته هذه الآثار في نهاية القرن الأول للهجرة ... "(٥٣) .

بعد هوار وجدنا جولد تسيهر يتحامل على التفسير منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم حتى إذا انتهى به الكلام إلى ابن جرير الطبري لم ير في "جامع البيان " أكثر من " دائرة معارف للإسرائيليات ". ذلك أن أبا جعفر – حسب قول تسيهر – " يتوسع كذلك في استخدام المصادر اليهودية الأصل فيما يتصل بقصص الإسرائيليات، ولم يكن لينال موافقة سلفه الذين سبقوه ...، بل إن كتابه من أغزر الكنوز بالنصوص المنتشرة في الأوساط الإسلامية من مواد الإسرائيليات، كذلك الأساطير النصرانية يرويها راجعا إلى وهب بن منبه(٥٤)".

وعند ظهور الطبعة الأولى من " دائرة المعارف الإسلامية " كانت حملة المستشرقين على علم التفسير قد ابتدأت مما سمح لهم بالإعلان عن دعواهم بأن الأخبار التي تضمنتها كتب التفسير كلها لا أصل لها.

قال كاراديفو – محرر مادة (التفسير) في " دائرة المعارف ".

" وعلم التفسير قديم قد يرجع تاريخه إلى صدر الإسلام، ويروى أن ابن عباس ت ٦٨هـ كان حجة في التفسير، وقد نسبوا إليه تفسيرا. وتساءل النقاد المحدثون – جولد تسيهر ولامنس وغيرهما – عن قيمة الأحاديث الواردة في هذه الكتب الجامعة، ولم يصلوا بعد إلى رأي يعززها كثيرا، والظاهر أن أغلب هذه الأحاديث موضوع إما لتقرير مسألة شرعية وإما لأغراض كلامية وإما لمجرد التوضيح، بل قد يكون لمحض اللهو والتسلية، ويذهب النقاد المحدثون إلى أنه لا أمل في العثور في هذه التفاسير على أخبار صحيحة عن أسباب نزول القرآن وإذاعته في الناس".(٥٥)

ولقد كان "جامع البيان" للطبري ت ٣١٠هـ أكثر كتب التفسير تعرضا لمختلف مطاعن المستشرقين حتى في السنوات الأخيرة حين نشر" بيير غودي " ترجمة فرنسية لما اعتبروه "مختصر

تفسير الطبري" عام ١٩٨٣م، حيث نقرأ في تقديم هذا المختصر "المطالب العاجلة" التي تلح عليها الدوائر الاستشراقية وتدعو لبحثها من خلال" الدراسة العلمية العصرية "لجامع البيان، ومن هذه المطالب "تحديد وضبط دور هذا الكتاب في تشكيل أرثوذكسية أهل السنة"(٥٦).

لكن الذي يمكن أن نخرج به من حملة المستشرقين على "جامع البيان" أمران :

الأول: "أنهم رأوا في هذه الحملة جزءا من" الواجب "الذي ترتب عليهم بسبب موقفهم من تراث المبتدعة، فلكي يخلو المجال لهذا التراث لابد من إبعاد مقابله الذي هو تفسير أئمة أهل السنة ومنه " جامع البيان ".

الأمر الثاني : أن جهل أغلب دارسي القرآن من المستشرقين باللسان العربي جعلهم لا يتوقفون عن ترديد كلام أسلافهم في مطلع هذا القرن، وهكذا مازلنا نصادف منهم حتى الآن من لايزال يكرر نفس كلام جولد تسيهر، رغم أن المتداول اليوم من ذخائر المكتبة القرآنية لا يقارن بما كان موجودا قبل وفاة هذا المستشرق.

المبحث الثالث : المنهج المقترح للتفسير عند المستشرقين

في منتصف القرن العشرين كثرت منشورات المستشرقين المتصلة بالتفسير، واشتهر من بين المستشرقين المحسوبين على الدراسات القرآنية : الفرنسي بلاشير والألماني بيرتزل والإنجليزي أربري والأمريكي ذو الأصل الاسترالي جفري...

ونظرا لوفرة ما نشره هؤلاء وغيرهم في مجال الدراسات القرآنية فقد خيل إليهم أنهم أصبحوا مؤهلين ليس للكتابة عن اتجاهات التفسير ومناهجه، بل أيضا في مكنتهم التصدي لتفسير القرآن نفسه.

ولإضفاء شكل من الموضوعية العلمية على مشروعهم لإعادة النظر في تفسير القرآن، وحتى لا يتهموا بأنهم يخوضون في القرآن بآرائهم الكليلة وتصوراتهم المدخولة وهم دعاة " البحث العلمي المنهجي " ... فقد تضافرت جهودهم من أجل اقتراح منهج استشراقي لتفسير القرآن، وقد جمع هذا " المنهج" كلود كايو في المادة التي حررها ونشرها أخيرا ضمن مادة (قرآن) في "دائرة المعارف الكونية "المبحث الخاص" بالقرآن والدراسات المعاصرة"(٥٧)، ويقوم هذا المنهج على ثلاث خطوات :

الأولى : إعادة البحث في تاريخ المصحف الشريف جمعا وتدوينا ...

الثانية : القيام بعملية " نقد " لأمهات التفاسير المعتمدة.

الثالثة : إعادة تفسير القرآن اعتمادا على معطيات " العلوم الإنسانية " المعاصرة كما هي بالغرب.

وللحقيقة لا يدري القارئ المسلم الذي له دراية بعلم التفسير وبتاريخه كيف سينجز المستشرقون هذا المشروع ؟ ومتى ؟ ومن سيقوم بإنجازه والإشراف عليه ؟ هذا دون أن نتساءل اليوم عن الأسباب الداعية إلى ذلك المشروع والغاية المقصودة منه ؟ !!..

المطلب الأول : الدعـــوة إلى إعـــادة توثيـــق المصحـــف

هذه هي الخطوة الأولى في منهجهم المقترح، وتقتضي مراجعة تاريخ المصحف الشريف حيث يتطلع المستشرقون بالدرجة الأولى إلى إعادة النظر في جمع المصحف الإمام في خلافة عثمان رضي الله عنه[٥٨]، والذي يتتبع الكتابات الاستشراقية بخصوص هذا الموضوع لابد أن يستشف الغاية التي يرغبون الوصول إليها وهي تحديدا : إمكانية التصرف في القرآن الكريم حذفا وزيادة !!!

وفي سبيل هذه الغاية اتجهت كتاباتهم – كما لا يخفى على المطلع – إلى الاهتمام بثلاثة مجالات لازالوا يبحثون فيها حتى اليوم :

الأول : منها تتبع مصادر القراءات الشاذة والمنكرة والاحتفال بها والعمل على نشرها ...

الثاني : بذل الجهد لدى بقايا مختلف طوائف الضلال من باطنية العصر الراهن، وجمع تراثهم وأضاليلهم التي يدعونها على المصحف، واهتم المستشرقون – في هذا الجانب – ببقايا الإسماعيلية بخاصة في شمال الهند ولبنان وجبال العلويين قرب اللاذقية بسوريا حيث استقرت الطائفة النصيرية منهم [٥٩] .

المجال الثالث : تطلع المستشرقون من خلال هذا المشروع إلى إعادة تشكيل مصحف جديد يعتمد الترتيب النزولي حتى يمكنهم إدماج مختلف الضلالات فيه. ورغم استحالة تحقيق هذا العمل لانقطاع الرواية في شأن زمن نزول الكثير من مقاطع القرآن، فإن هذا الترتيب النزولي استهوى – ولازال– الكثيرين ممن هفو نفوسهم – التي غلبها التعصب– إلى إعادة تشكيل مصحف جديد للمسلمين !! [٦٠]

أما الأسباب التي برر بها هؤلاء دعوتهم لمراجعة المصحف فهي :

أولا : طريقة جمع المصحف على عهد عثمان رضي الله عنه، حيث يسعى المستشرقون إلى إعادة النظر في المنهج الذي اتبعه المسلمون للتمييز بين القراءات المتواترة والمشهورة وغيرها من القراءات الشاذة ... التي استبعدت من الصحف، ويدعي هؤلاء أن الفصل في هذه المسألة لم ينته بعد [٦١] .

ثانيا : أن المصحف العثماني الذي تناقله المسلمون حتى اليوم لم يكن تدوينه كاملا، لذلك احتاج فيما بعد إلى آراء الفقهاء لبيان الناسخ والمنسوخ وذلك حرصا على بعض التشـــــريعات التي لم يتضمنها المصحـــف كعقوبة الرجم[٦٢].

ثالثا : أن هذا المصحف ظل خاضعا للمراجعة حتى القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي [٦٣].

المطلب الثاني : مطالبـــة المستشرقيـــن بنقد التفاسيـــر المتقدمـــة

وعملية النقد التي يطلبها هؤلاء لا تعني إطلاقا تطبيق مناهج النقد عند أئمة الرواية على آثار التفسير كما فعل بعض أعلام المفسرين ... كما أن هذا النقد لا يمكن أن يطال الاتجاهات المنحرفة التي شهدها تاريخ التفسير، بل إن المستشرقين لا يهمهم بالدرجة الأولى سوى نقد أمهات التفاسير التي صنفها أئمة علماء أهل السنة.

ثم أن المنهج الذي يريدون تطبيقه لا صلة له بالقرآن وأهله، وليس بمستطاعهم استيعاب مناهج أئمة الرواية، لذلك كانت مطالبتهم بنقد أمهات التفاسير هي في حقيقتها مطالبة بهدم هذا العلم الذي خدم كتاب الله.

وإذا رجعنا إلى المادة التي حررها المستشرقون"لدائرة المعارف الكونية" فإننا نجد كلاما صريحا حول مسألة نقد التراث التفسيري وأنه يجب أن يوجه لخدمة غاية واحدة هي بيان كيف أن علوم الإسناد لعبت دورا أساسيا في تثبيت " إيديولوجية " أهل السنة عن طريق ربط الجماعة المسلمة بسلاسل من الرواة من نقلة الأحاديث [٦٤]... وفي هذا الموضوع قال كلود كايو : [٦٥]

" إن عملية نقد مصنفات التفسير بالمأثور عند المسلمين يمكن أن تقودنا إلى الإسهام الإيجابي في مشروع إعادة تفسير القرآن، فأعلام المفسرين – في الواقع – هم أهم شاهد على الطريقة التي تشكلت بها الذاكرة الإسلامية المشتركة، إن تفسيرا اثريا كتفسير الطبري نجده فضلا عن شروحه

الفلسفية والنحوية وشواهده الشعرية يجمع قدرا كبيرا من مرويات التفسير المنقولة بواسطة أكثر من خمس وثلاثين ألف سلسلة رجال، وهذا المصنف يمدنا بالطريقة التي تنتقل بها المرويات (الأحاديث)، هذه الأخيرة التي عملت دائما على تجديد التصورات الوجدانية؛ وفي هذه البوتقة فإن المفسر التقليدي ليس مجرد جامع للمرويات يكتفي بتسجيلها ثم نقلها لمن يأتي من بعده، بل إنه يرتب الأحاديث ويرجح فيما بينها ويدلي برأيه فيها ويعطي لتلك المرويات دلالة في التصور الإسلامي العام، على أن هذه الدلالة يتم تأكيدها وإثباتها من قبل المفسر بواسطة سلاسل الرواة التي يضمن بها تماسك إيديولوجية – عقيدة – الجماعة المؤمنة، ولجوء المفسر إلى هذا النوع من الخطاب الذي يعتمد على إسناد الحديث يكشف لنا مختلف الإسقاطات التي وقعت في كتب التفسير، حيث كانت الرغبة متجهة لتكريس مرويات بعض الصحابة الذين خصتهم كتب التراث بسير أسطورية مثل ابن عم محمد عبد الله بن عباس ت ٦٨هـ؛ على أن هذا النوع من الدراسة يتطلب منا أن نطرح من جديد السؤال عن العلاقة بين ما هو واقعي حقيقي وما كان إبداع المخيلة – في كتب التفسير – كما سبق أن طرح ذلك في مجال دراسة المجتمعات البدائية والتاريخ الوسيط والقديم – بالغرب –[٦٦].

إن هذا النص ليس كلام مستشرق مغمور، بل هو خلاصة ما توصل إليه المستشرقون آخر القرن العشرين، وغير خاف على القارئ أن الهدف النهائي من مطالبة المستشرقين بنقد التراث التفسيري هو الطعن في جانب من السنة المشرفة (أحاديث التفسير) والنيل من عدالة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى يفتح الباب على مصراعيه من أجل تبني هرطقات المبتدعة المنسوبة إلى التفسير، وهذا بحق هو جوهر" الدراسة" الاستشراقية لعلم التفسير كما سيأتي توضيحه في المطلب اللاحق.

المطلب الثالث : تبني المستشرقين الدعوة لإعادة تفسير القرآن

تفسير القرآن علم له قواعده وآدابه ومصادره، ولا يمكن أن نجد علما من العلوم–سواء كان يهتم بالدين أو لا علاقة له بموضوعه – يخرج عن هذا الأصل العام في المعارف الإنسانية قاطبة.

ولا يوجد مجال في هذه الدراسة للكلام عن أصول علم التفسير لذلك نكتفي بالتأكيد عليها وتطلب في مظانها المختلفة ...

والحركة الاستشراقية المعاصرة حين أرادت الخوض في تفسير القرآن لم تكن تغفل هذا الموضوع[٦٧]، لكنها أرادت أن تتركه ظهريا وتلتوي على هذه الأصول العلمية بدعوى الاستفادة من معطيات العلوم الإنسانية بالغرب .

وتبعا لهذه الدعوى وجدنا المستشرقين المشتغلين في موضوع الدراسات القرآنية ابتداء من منتصف القرن العشرين يطالبون بإعادة النظر في تفسير القرآن بإخضاعه لمعطيات العلوم الإنسانية بالغرب . هذه المعطيات التي عمدت الدوائر العلمانية والتيارات اللادينية الغربية إلى تطبيقها على تراثها الديني المحرف.

وفي هذا الموضوع ورد ضمن مادة (قرآن) " بدائرة المعارف الكونية " طبعة ١٩٩٠: " إن تطور الدراسات القرآنية بالغرب في أواسط القرن العشرين قد حدث تحت تأثير التقدم الملحوظ في تفسير (الكتاب المقدس) وتأثير النظريات الأدبية؛ إن أثر العلوم الإنسانية وبخاصة – علم دراسة المجتمعات البدائية (الأنتروبولوجيا) وعلم تاريخ الأديان بدأ ذلك الأثر يظهر في مجال تفسير القرآن بالغرب : مثل البحث عن دور الشعارات والرموز الدينية ودور الوجدان الديني ودور الأساطير المرتبطة بالدين ...، ويمكننا بهذا الخصوص أن نميز بين اتجاهين حديثين ظهرا في مجال تفسير القرآن بالغرب:

الأول : اهتم بتاريخ المصحف وتكوينه وجمعه وكتابته؛ والثاني: اتجه إلى إعادة النظر في علم التفسير عن طريق المطالبة بتطبيق الآليات التي توفرها مختلف العلوم الإنسانية، كما يتمسك هذا الاتجاه أيضا بالدعوة إلى نقد أمهات التفاسير القديمة، هذه الأخيرة التي تعتبر شاهدا على الطريقة التي تم بها التفاعل مع النص القرآني من أجل تشكيل الوجدان الإسلامي في مراحل عدة من التاريخ، وهذا يعني أن الدراسة النقدية لهذه التفاسير تهدف إلى معرفة الطريق التي قد تم بها تصور الإسلام وكيف جاء هذا الدين وأخيرا كيف تخيله المسلمون في وجدانهم"[٦٨].

والذي يظهر من خلال هذا النص أن "منهج" المستشرقين في دعوتهم لإعادة النظر في تفسير القرآن ينطلق من عدد من "الفرضيات التي يسعى هؤلاء لتأكيدها من خلال دعوتهم هذه :

الفرضية الأولى : اعتبار القرآن الكريم " تراثا " خاصا يرجع إلى القرون الوسطى، ودراسته تتطلب إخضاعه لمبادئ الانتروبولوجيا (علم دراسة المجتمعات البدائية)...[٦٩].

الفرضية الثانية : أن هدي القرآن في العقيدة والتشريع هو مجموعة أحكام أدرجها علماء الإسلام ضمنه حتى يجعلوها ملزمة لأتباع هذا الدين(٧٠)

الفرضية الثالثة : أن تفسير القرآن الذي بين أيدي الناس اليوم إنما هو من اختلاق المفسرين الذين عمدوا إلى فرضه بواسطة تلك الأحاديث المسندة التي تنتهي إلى عدد من الصحابة الذين اختلقت لكل واحد منهم سيرة أسطورية تسمو به في تصور المسلمين.

الفرضية الرابعة : أن الدين الذي جاء به القرآن " دين متسامي " عن الاهتمام بسلوك الناس، وأن أقصى ما يبلغه مخاطبة الوجدان الفردي للمؤمن كما هو الحال في الشكل الذي استقر عليه دين النصارى عند اتباعه !!! بل لماذا لا يكون دين الإسلام مستنسخا من تراث أهل الكتاب ؟ ؟!

المبحث الرابع : تقييم كتابات المستشرقين عن التفسير

في مجال تقييم هذه الكتابات سيكون من المفيد محاولة استقراء مختلف المصادر التي يعتمدها المستشرقون ويؤسسون على معطياتها آراءهم واستنتاجاتهم، كما يدخل ضمن عملية التقييم البحث عن المميزات والخصائص التي انطبعت بها هذه الكتابات؛ وإبراز مميزات الكتابات الاستشراقية عن التفسير من شأنه أن يساهم في بيان القيمة العلمية لدراسات المستشرقين عن الموضوع.

على أنه أيا كانت مصادر الدراسات القرآنية عند المستشرقين فإن الحقيقة الموضوعية لابد أن تظهر ما لم تحجبها ذاتية المستشرق، والمسألة التي لا يمكن إغفالها في هذا المجال هي أن الخلفية الدينية – وأحيانا التعصب – ظل ذلك حاجزا يحول بين مختلف المستشرقين وبين البحث العلمي الموضوعي المتعلق بالقرآن وتفسيره.

المطلب الأول : مصـــادر المستشرقيـــن في الكتابـــة عـــن التفسيـــر

تختلف المصادر التي اعتمدها المستشرقون للكتابة عن التفسير تبعا لعدة عوامل منها : تفرغهم " للدراسات القرآنية " وإلمامهم بمختلف اللغات الأوربية وأخيرا اطلاعهم على الآداب العربية.

فالملاحظ أن أولئك المستشرقين الذين يكتبون عن مختلف مجالات المعرفة الإسلامية يطغى عليهم اختصار مؤلفات سابقيهم.

أما مسألة الإلمام باللغات الأوربية فيظهر أثره بالنظر إلى أن إصدارات الحركة الاستشراقية المتصلة بالتفسير موزعة بين تآليف مكتوبة بالفرنسية والألمانية والإنجليزية... وترجمة هذه التآليف من إحدى هذه اللغات إلى أخرى قليل مقارنة بنشاط الترجمة في مختلف المعارف بالغرب.

أما العامل الأخير وهو الاطلاع على الآداب العربية، فليس المقصود بذلك الإلمام بها، إذ الغالبية العظمى من المستشرقين لا يتكلمون العربية أصلا، وقلة منهم يفهمون ما يقال بالعربية بصعوبة، وحتى أكثرية أولئك الذين نشأوا وعاشوا في البلاد العربية أصلا لا تخفى الصعوبة التي تعترضهم حين يتعاملون مع الكتاب العربي.

وحين نبحث في المصادر المعتمدة لدراسة التفسير نجد أكثرها مراجع وسيطة تتشكل أساسا من تلك المؤلفات التي نشرها المستشرقون أنفسهم، وقد يحيل بعضهم إلى مصادر ومراجع عربية لكنها في الغالب مترجمة إلى لغة أوربية.

تبعا لذلك فالبحث في مصادر (أو موارد) كتابات المستشرقين عن التفسير يتطلب تقسيم هذه الكتابات إلى قسمين :

الأول منها : كتابات اعتمد مؤلفوها الإحالة على مصادر ومراجع بالعربية لم تترجم إلى اللغات الأوربية وهي قليلة نسبيا، من هذه الكتابات الاستشراقية " مذاهب التفسير الإسلامي " المنشور في ليدن عام ١٩٢٠م؛ ومنها أيضا ما حرره " ويلتش " ضمن دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية الصادرة عن مكتبة بريل في ليدن عام ١٩٨٦ م وان كان هذا الأخير قد أحال إلى مصادر مترجمة.

القسم الثاني : كتابات استشراقية اهتمت بالتفسير وكانت عالة على التراث الاستشراقي نفسه، وهذا القسم هو الغالب، فلو أخذنا مختلف المواد التي تضمنتها " دائرة المعارف " في مختلف إصداراتها وأكثر المؤلفات الفردية التي كتبها المستشرقون، فإن ذلك يدخل إجمالا في هذا القسم، فالمادة التي حررها كاراديفو في بداية القرن العشرين " لدائرة المعارف الإسلامية " لا تذكر في مصادرها غير التراث الاستشراقي، والمادة التي حررها كلود كايو " لدائرة المعارف الكونية " مذيلة بعشرين مرجعا كلها بدون استثناء من كتابات المستشرقين أو تلامذتهم بشتى اللغات الأوربية؛ والأمر لا يختلف في كتابات بلاشير وجاك بيرك وجويمر وبالجون وجفري...

ولتقييم مدى استفادة القسم الأول من كتابات المستشرقين من المصادر العربية فإنه مما لا يخفى على المتتبع أن هذه الاستفادة كانت محكومة بتوجهات المستشرقين وتصوراتهم الخاصة للقرآن وتفسيره.

فجولد تسيهر – مثلا – في كلامه عن القراءات القرآنية ضمن الفصل الذي خصصه " للمرحلة الأولى للتفسير " نجده يحيل في توثيق القراءات على الكشاف للزمخشري[٧١] ، وهذا الكتاب رغم كونه من كتب التفسير إلا أنه ليس مصدرا للقراءات، وقد نجد الزمخشري يتعصب للقراءة المردودة والشاذة لا لشيء إلا لأنها تنصر مذهبه، فالمستشرق يستغل هذا الجانب؛ ولهذا الغرض أيضا وجدنا المستشرقين يهتمون " بشواذ القراءات " لابن خالويه وكتاب " المصاحف " لابن أبي داود ...

وفي هذا السياق أيضا وجدناهم يختارون من كتب علوم القرآن "الإتقان" للسيوطي ت ٩١١هـ حيث نشره النمساوي شبرنجر ت ١٨٩٣م، وكان بعض المستشرقين يستندون في مطاعنهم إلى تلك الروايات الواهية التي أوردها السيوطي في "الإتقان" [٧٢] .

فنخلص من خلال تتبع الأمثلة السابقة إلى أن رجوع بعض المستشرقين للمصادر العربية للتفسير كان محكوما بتصوراتهم الخاصة عن القرآن، فلم تفدهم هذه المصادر من الناحية المعرفية في شيء، وأحيانا نجدهم يتعمدون الكذب وينسبونه لهذه الكتب، وقد وجد من هؤلاء المستشرقين من لم يعرف العربية ولم يرجع إلى المصادر، لكنه وجد بين يديه ركاما من كتابات أسلافه فاعتمده وسعى لأجل ترويجه بأخطائه المعرفية والمنهجية المتعمدة[٧٣].

المطلب الثاني : سمات وخصائص كتابات المستشرقين عن التفسير

انطبعت هذه الكتابات بمجموعة من السمات ناتجة بالخصوص عن سببين اثنين :

الأول : يتعلق بالمنطلقات المنهجية التي ابتدأ منها اهتمام المستشرق بالتفسير وتشكل تبعا لها تصوره عن القرآن وعن التفسير.

الثاني : الأغراض والغايات التي لأجلها وقع هذا الاهتمام، فهي – كما يظهر – ليست بالضرورة أعراضا علمية صرف أو غايات هدائية ...

واعتبارا لتلك المنطلقات والأغراض وجدنا كتابات المستشرقين عن التفسير تنحو دائما في اتجاه واحد وإن اختلفت سبلها.

ففي بداية القرن العشرين اتجه المستشرقون إلى تأصيل الاتجاهات المنحرفة في التفسير ضمن تاريخ هذا العلم باعتبارها إسهامات سابقة حتى يفتحوا الطريق لإضافة " إسهاماتهم " أيضا لعلم التفسير ...

وفي منتصف هذا القرن – لما فشلت المحاولة الأولى – اتجهت جهود المستشرقين لتبني بدعة مستحدثة هي الدعوة إلى إعادة تفسير القرآن اعتمادا على معطيات العلوم الإنسانية بالغرب بخاصة " علم دراسة المجتمعات البدائية[٧٤] .

وحين نرجع إلى مختلف كتاباتهم عن موضوع التفسير نجدها – اعتبارا لما تقدم – قد انطبعت بمجموعة من السمات ظهرت بجلاء رغم تمسك بعضهم بإضفاء الطابع " العلمي المجرد " على هذه الكتابات.

١-الخاصية الأولى لكتابات المستشرقين عن التفسير هي " الانتقائيــــة ". والأصل أن الدراسات والبحوث الإنسانية جمعاء تعتمد على التتبع ثم الجمع ثم الاستقراء واستخلاص النتائج؛ أما كتابات المستشرقين عن التفسير فهي تنطلق من تصور افترضه المستشرق ثم سعى جاهدا من أجل تقريره وتدعيمه حتى يصبح " حقيقة علمية "، وفي سعيه لذلك يلجأ المستشرق لأي تبريرات يقع عليها حتى ولو كانت لا أصل لها [٧٥].

٢- الخاصية الثانية " الذاتيــــة " ، ومردها إلى تأثير الخلفيــة الدينية للمستشرق في كتاباته فيعتقد المستشرقون أن القرآن من " تأليف" محمد صلى الله عليه وسلم، فيكتبون عنه باعتباره أثرا أدبيا، ولو وقع أن نظر المستشرق في القرآن بعد أن تجرد من خلفيته – اليهودية أو النصرانية – ومن تعصبه لها لحصل له مثل ما كان يحدث لمشركي أهل مكة الذين لم يعمهم التعصب زمن النبوة، فقد أدى التجرد بكثير منهم إلى أن يتبصروا حقيقة القرآن، هذا بطبيعة الحال مع

اعتبار جهل المستشرقين باللسان العربي المبين الذي أنزل به هذا الكتاب (٧٦).

٣-الخاصية الثالثة " السطحيــــة " أي فقدان العمق العلمي والمعرفي، وقد برزت هذه السطحية على مستوى مضمون كتابات المستشرقين عن التفسير وعلى مستوى المنهج.

فعلى مستوى المضمون لا تكاد هذه الكتابات تخفي فقرها المعرفي وتجاهلها لبدهيات العلم هذا دون الكلام عن إهمالها الرجوع إلى المصادر المتراكمة باللغة العربية.

أما على مستوى المنهج فقد كرس هذه السطحية حرص المستشرقين على " دراسة " تفسير القرآن بمناهج غريبة عن هذا العلم، استعاروها من خارج التراث العلمي الذي يشتغلون به، فكان من نتائج ذلك أنهم لم يستوعبوا علم التفسير ولم يستطيعوا أن يلموا بمناهج وطرق المفسرين (٧٧).

٤- الخاصية الرابعة "الانقطــــاع" ويظهر ذلك من خلال مختلف المشروعات التي يطرحها المستشرق (أو لفيف من المستشرقين)، فرغم اتفاقهم في المرحلة الأخيرة على إعادة تفسير القرآن اعتمادا على معطيات العلوم الإنسانية فحسب، إلا أن السبل تشعبت بهم بعد ذلك بسبب تعدد هذه العلوم واختلاف مجالاتها ثم توسعها الكبير خلال العقود الأخيرة (٧٨)، واعتبارا لهذا التوسع فإن الكلام عن تفسير يعتمد معطيات هذه العلوم هو ضرب من الخيال ومحاولة متعمدة لدفع تفسير القرآن إلى فضاء التيه حتى يغدو كتاب الله محتملا لكل ضلال.

وقد تجلت خاصية "الانقطاع" بوضوح من خلال مختلف كتابات المستشرقين عن موضوع التفسير، فلو قدر لنا اليوم أن نجمع مختلف ما نشره هؤلاء فسنجد أنفسنا أمام " سديم" من الإنشائيات التي لا يجمع بينها شيء خلا تلك الدعوة إلى إعادة النظر في تفسير القرآن.

هذا بإجمال أهم السمات التي اختصت بها كتابات المستشرقين عن التفسير، وإذا نظرنا إليها بعين الإنصاف ألفيناها نقائص أو سلبيات أثرت على القيمة العلمية لهذه الكتابات.

لذلك كان حريا بهذه الكتابات الاستشراقية عن التفسير أن تظل – تبعا لذلك- محصورة في دوائر وأكاديميات المستشرقين وأذنابهم من المسلمين الذين لن نتعرض لهم في هذه الدراسة...

واليوم لا نصادف في العالم الإسلامي أثرا لتلك الدعوة التي انطلقت قبل نصف قرن من أجل " تفسير للقرآن " يعتمد في دعامته على معطيات العلوم الإنسانية بالغرب اللهم بعض النتف في تلك الرسائل الجامعية " الموبوءة " التي تم احتضانها في المؤسسات الاستشراقية.

المطلب الثالث : أسبــاب انحـــراف كتابــات المستشرقيــن

درج العلماء على تقسيم مختلف ما ألف عن تفسير القرآن إلى إسهامات مقبولة وهي المنضبطة علميا، وكتابات منحرفة وهي التي تكون ناتجة عن جهل بالعلم أو هادفة إلى تقرير مذهب فاسد ..، وهذا التقسيم إنما وضعوه حين أرادوا الكلام عن اتجاهات التفسير وبدعه، والهدف منه تمييز تراث المبتدعة المنسوب إلى علم تفسير القرآن عن التفاسير العلمية السليمة المنهج، فاختصت مؤلفات أهل البدع بمصطلح " التفسير بالرأي المذموم" كما عرفت تفاسير غيرهم بمصطلح " التفسير بالرأي المحمود" ... وهذا عندما يكون الكلام عن التفسير بالاجتهاد وإعمال العقل.

وحين نرجع إلى كتابات المستشرقين عن التفسير وعن منهجه كما يتصورون ذلك نصادف بأنهم لا يكادون يختلفون في مسلكهم ودعوتهم عن نزعات أهل البدع قديما، فقد قصدوا إلى التســور على العلم بغية هدمه، وركبوا لتلك الغاية كل صعب وذلول؛ وإذا كان العلماء قديما قد تكلموا في أسباب انحراف تفسير أهل البدع، فإن انحراف كتابات المستشــرقين عن التفسيــر في العصر الراهن يرجــع إلى عدة أسباب يمكن إجمالها في الآتي :

السبب الأول : فســاد المعتقــد، وهذا يلتقون فيه مع أسلافهم من المبتدعة قديما، ومرد هذا الفساد تعصبهم لمللهم ونحلهم لذلك عميت بصائرهم عن إدراك دلائل ربانية القرآن، من ثم نظروا إلى كتاب الله باعتباره جزءا من تراث الأمة التي ينتسب إليها.

السبب الثاني : ســوء القصــد، فالمعروف لدى طالب علم التفسير ودارسه أن من أهم الآداب التي يجب توفرها في المفسر والدارس لكتاب الله " سلامة القصد " (٧٩)، وأهم أسباب ضلال المبتدعة قديما هو أنهم أرادوا تأصيل نزعاتهم من خلال التأليف في التفسير وتضمينه تلك الأهواء فضلوا وأضلوا، والمستشرقون حديثا ولجوا ميدان التفسير ولم يبتغوا الحق، بل منهم من قصد إلى إضفاء تصورات نحلته عليه، ومنهم من قصد هدم هذا العلم أصلا بشتى الوسائل وهذا مما لا يخفى في كتبهم.

السبب الثالث : فوضى المنهــج، يعرف المنهج اختصارا بأنه الطريقة التي يسلكها الدارس والباحث من أجل الوصول إلى حقيقة علمية، سواء كانت تلك الطريقة تعتمد الاستقراء والتتبع أو كانت تعتمد التحليل والتقويم أو التجريب والملاحظة...، وغياب المنهج في أي مجال من مجالات البحث يؤدي إلى ما يمكن أن نصطلح عليه " بفوضى المناهج " ... ، وقد أدت هذه الفوضى في مجال " أصول الدين"قديما إلى ظهور شتى الطوائف والفرق المتنافرة، كما أدت هذه الفوضى في

مجال التفسير بالرأي إلى ظهور مختلف "التفاسير المذهبية".

وظهرت هذه الفوضى في كتابات المستشرقين عن التفسير لما اعتبروا القرآن تراثا أدبيا تجرب عليه كل المناهج التي عرفتها البيئة الغربية سواء كانت مناهج مادية أو وضعية، وسواء كان مجالها دراسة الأساطير أو دراسة الوقائع وسواء كانت مناهج تاريخية أو كانت فلسفية ... لينتهي المطاف بالمستشرقين إلى فتح مجال تفسير القرآن على شتى " المناهج " التي عرفت في ميدان العلوم الإنسانية بالغرب بتناقضاتها وتضاربها واخفاقاتها أيضا(٨٠).

السبب الرابع : الجهل بالعلم، المعارف البشرية جميعها يتوقف استيعابها على الإحاطة بكلياتها وفروعها، ولا يوجد نوع من هذه المعارف يمكن تحصيله بدون طلب، والحرص على الطلب مع المواظبة والاستمرار يورث العلم، ثم إن جميع العلوم لها أصول وقواعد، والطريق الذي سلكه العلماء كيفما كانوا هو أولا التحصيل من مصادره ومظانه ثم الانضباط لقواعد العلم وأصوله ...

فالذي لم يسلك طريق التحصيل أولا جاهل ولو ادعى خلاف ذلك .

والذي لا ينضبط لقواعد العلم وأصوله وآدابه مخالف لمقتضى العلم- وإن سبق له تحصيل – فلا يؤمن أن يخلد إلى هواه (٨١) .

وحين نرجع إلى كتابات المستشرقين عن التفسير نجد بأنه اجتمع فيها الجهل بالتفسير والجهل بما يقتضيه هذا العلم.

فأما الجهل بالتفسير فمظهره تجلى من خلال ترديد الأجيال المتعاقبة من المستشرقين لتراث متقدميهم وأسلافهم فقط.

وأما الجهل بمقتضى العلم فأول مظاهره عدم اكتراثهم بآداب وقواعد علم التفسير حيث تقرر في أوساطهم منذ عقود أن تفسير كتاب الله يمكن أن يزاوله حتى من يكفر بربانية القرآن أو من يبحث عن " دلائل " نسبته إلى البشر ...

السبب الخامس : الجهل باللغة العربية وعلومها وآدابها، إذ أن مشاهير المستشرقين لا يحسنون الحديث بالعربية، ولا استظهار شيء مكتوب بها رغم أنهم عاشوا بين المتكلمين بهذا اللسان خلال فترة الاستعمار (٨٢).

أما غير هؤلاء المشاهير فإن القطيعة بينهم وبين اللسان العربي أكبر، أضف إلى ذلك أن متأخري المستشرقين تم تكوينهم بلغاتهم الأصلية في الجامعات الغربية، وإن من يراجع نظم التعليم

العالي في الغرب يصادف ذلك الإصرار على محاربة جميع أشكال المنافسة للغة الوطنية أو القومية في كل دولة من الدول، ففي فرنسا– على سبيل المثال لا الحصر – يفرض على الباحث المتخصص في الآداب الإنجليزية أو الإسبانية أو غيرهما أن يحرر ويناقش أطروحته بالفرنسية رغم مجافاة ذلك للبحث العلمي، ونفس الشيء يفرض على المتخصص في فرع من فروع الدراسات الشرقية، ويتأزم أمر الباحث حين يكون موضوعه " تحقيق " مخطوط معين ... والخلاصة لهذا كله أن تكوين عامة المستشرقين لا يرفع عنهم الجهل باللغة العربية التي ألفت بها كتب التفسير، ومادام الأمر كذلك فالمستشرق لن يستطيع الاستفادة من أمهات كتب تفسير القرآن فيظل تبعا لذلك متوقفا عند تكرار تلك " الإنشائيات " التي يجدها بين يديه وهي على قلتها ليست كتبا علمية كما سلف الكلام عنها (٨٣).

الخاتمـــــــة:

كانت المباحث السابقة عرضا تحليليا وتقييما لكتابات وتآليف المستشرقين عن موضوع تفسير القرآن، وقد كان من أولويات هذه الدراسة الاعتماد على ما نشره المستشرقون عن التفسير في مختلف إصدارات " دائرة المعارف " نظرا للقيمة التي أعطيت لهذه الدائرة في الشرق والغرب على السواء.

ولم تتوقف هذه الدراسة على هذه المواد فحسب بل تم الرجوع إلى كثير من تآليف المستشرقين عن الموضوع : كتابا أو مقالة ...

وقد خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج :

أولاً : أن الكتابات الاستشراقية عن التفسير حاولت في أول أمرها تأصيل تراث المبتدعة المنسوب إلى علم التفسير وذلك بجعله لونا من ألوان هذا العلم، فلما ظهرت بالعالم الإسلامي حديثا تلك الدراسات العلمية التي كشفت حقيقة هذا التراث وبينت عوراه ...، غير أكثر المستشرقين " خطتهم " وظهرت في محافلهم دعوى ظنوها جديدة !!

ثانياً : أن دعوة المستشرقين لاعتماد معطيات العلوم الإنسانية بالغرب في مجال تفسير القرآن أملاها عليهم عدم قدرتهم على التعامل مع المصادر العلمية المتراكمة عبر القرون في علم التفسير وأصوله.

ثالثاً : أن دعوة المستشرقين لإعادة النظر في التفسير قدموها في صياغة نظرية غير منضبطة حتى تتسع لهم ولمن سلك طريقتهم في تفسير كتاب الله بمحض الهوى.

رابعاً : أن " الطريقة " التي دعا المستشرقون لنهجها في تفسير القرآن الكريم ظلت طيلة عقود من الزمن مجرد نظرية لم يستطيعوا هم ولا غيرهم تطبيقها، وكل ما نجد من كتاباتهم في التفسير مجرد " مقالات " في التفسير الموضوعي يكون فيه المستشرق عالة تماما على " معجم آيات القرآن ".

وختاما نسأل الله السداد في القول والعمل والله تعالى أعلم وأحكم.

الهوامش والتعليقات

(1) – سبق لي أن عرضت لهذا الموضوع في دراسة عن " مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن " ضمن " مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية " التي تنشرها جامعة الكويت، العدد ٣٨ ، ربيع الثاني ١٤٢٠ هـ . ص ٦١– ١٥٩

Encyclopaedia of religion and Ethics Interpretation. –(2)

Encyclopaedia of religion and Ethics Interpretation. –(2)

Encyclopaedia of religion and Ethics Interpretation. –(2)

(5)– درج العديد من الدارسين في العالم الإسلامي وخارجه على الرجوع إلى " دائرة المعارف " في الكثير من المسائل العلمية، مع أن مواد هذه الدائرة ليست مصدرا لمعرفة شيء عن العلوم الإسلامية، بل تضمنت تلك المواد مجازفات وأخطاء لا ينبغي السكوت عليها.

ولإبراز مكانة هذه " الدائرة " عند بعض الدارسين أذكر – على سبيل المثال – أن د. عبد المجيد تركي المقيم في باريس لما حقق كتاب الباجي تـ ٤٧٤هـ " المنهاج في ترتيب الحجاج " لم يجد ما يحيل عليه في ترجمة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث إلا لمقال مستشرق في " دائرة المعارف ". والشيء نفسه فعله في ترجمة الدارقطني والشافعي والحسن البصري وغيرهم. انظر المنهاج في ترتيب الحجاج ص ١٢٨– ١٣٢...

وفي تحقيق كتاب " أحكام الفصول " للباجي أيضا يحيل في ترجمة ابن حزم – الذي تخصص فيه– على ما حرره أرنالدير لدائرة المعارف كذلك، وفي تعريف " الإيمان " أحال على لويس كاردي في دائرة المعارف ... وانظر " أحكام الفصول ... " ص ٤٦هـ ٥٨، ص ٧٤ هـ ١١٥...

(6)– الأرثوذكس مصطلح ارتبط في الآداب اللاتينية بالكنيسة الشرقية، أما دلالته في اللغات الغربية فتنصرف إلى صفة الجمود والانغلاق في أمور الدين، ومن خلال سياق وروده في كلام ويلتش فقد كنى به عن جمهور أهل السنة من المسلمين.

(7) – A.T. Welch, AL KURAN, in encyclopédie de l'Islam Tome 5, P 404.

(8) Claude Gillot, l'exégèse du Coran et les recherches contemporaines, in « Encyclopaedia universalis » corpus 6 .p 548.

(9)– أنظر في ذلك :

Théodor Noldeke, Remarques critiques sur le style et la syntaxe du Coran PP : 5 et 6, traduction de G.H. Bousquet.

(10)أنظر على سبيل المثال لا الحصر : ريجس بلاشير، تاريخ الأدب العربي ج ٢.

Régis Blachère, Histoire de la littérature Arabe des origines à la fin du XV siècle de J.C, Tome 2 P 188 ect …

(11) اشتهر بالكتابة في هذا الموضوع : نولدكه ثم بلاشير وويل، انظر في ذلك :

R. Blachère, introduction au Coran, PP 248- 263.

A.T. Welche AL KURAN, in encyclopédie de l'Islam Tome 5, P 418.

وقد أدى العجز عن تتبع الترتيب النزولي " ببلاشير" إلى أن يعتذر عن عجزه بالقول " بأن آيات القرآن ظلت محلا للتقليب والنقل بصفة مستمرة ودائمة مما تعذر معه حفظ تاريخ نزولها عن طريق الذاكرة التي كانت الأداة الرئيسية للحفاظ على الوحي زمن الرسول " أنظر

(12) Introduction au Coran P 260

exègèse coranique, in annuaire E.P.H.E : Islam :(12) –G.Monnot

Tome 91, P 309- 319, année 1982-1983.

(13) –" Le commentaire coranique" in : Etudes Arabe, Dossier 67- 68, (1984-1985) Roma

Encyclopaedia universalis, corpus 6, PP 543- 548. (14)

(15) – Jacques Berque, Relire le coran, Bibliothèque Albin Michel, Paris.

(16)– يمكن للباحث أن يرجع بهذا الخصوص للبحوث المقدمة إلى مؤتمر المستشرقين المنعقد بباريس عام ١٩٧٤م بمناسبة مرور قرن على بدء عقد هؤلاء لمؤتمراتهم؛ حيث سيغير المستشرقون اسم حركتهم ليحل

مصطلح " الاستعراب" مكان " الاستشراق "، وتسمى مؤتمراتهم " المؤتمر الدولي للعلوم الإنسانية في آسيا وإفريقيا " ثم " المؤتمر الدولي لدراسات آسيا وشمال إفريقيا " عوض مؤتمرات المستشرقين...

ولا يخفى في هذا الصدد تأثير الدراسات المتعلقة بالتوراة والأناجيل في البيئة الغربية على توجه المستشرقين ومناهجهم خلال العقود الثلاثة الأخيرة...

(17)- C. Gillot, Ency. Universalis, Corpus 6 P 547

مصطلح " القراءة " لا يعني التفسير فقط؛ وقد اشتهر المصطلح مع ظهور وتطور البنيوية التي تنظر إلى النصوص على أنها تظل قابلة للتفسير، وتنظر إلى " القراءة " على أنها عملية مستمرة لا تكتمل أبدا، وتنظر إلى " القارئ" – المفسر – على أنه يساهم في إنتاج المعنى...

(18)- أنظر في الموضوع :

Claude Cahen et Charles Pellat, les études, Arabes et Islamiques in " Journal Asiatique" Tome 261, Année 1973 P 89.

(19)- قال المستشرق ريجس بلاشير في القرآن نزوله وتدوينه ... " ص ٢٠ :

" وقد أتيح للعالم الأوربي خلال ثلاثة قرون من الزمن وبفضل هذه التراجم – أي ترجمات القرآن- أن يفكر بأنه قد ملك المفتاح لحديقة سرية كان يحلم بدخولها".

(20)- انظر في هذا المجال – على سبيل المثال – كتاب المستشرق الفرنسي جاك بيرك تـ ١٩٩٦م.

J. Berque, Relire le Coran, Bibliothèque Albin Michel, Paris.

وقد كان هذا " المستشرق " ضابطا في الاستعلامات الفرنسية بالمغرب خلال فترة الاستعمار، وتنقل في أواسط الخمسينات بين مصر ولبنان ليستقر بعد ذلك في باريس حيث عين في كرسي التاريخ الاجتماعي للإسلام بمعهد فرنسا، ورغم بعده عن مجال الدراسات القرآنية إلا أنه ظل يحرص على توجيه الطلبة الذين أشرف عليهم إلى " الخوض " في مجال التفسير حتى حين تكون موضوعات رسائلهم غريبة عن الدراسات القرآنية، وانظر على سبيل المثال رسالة تلميذه التونسي الطاهر لبيب عن " سوسيولوجيا الأدب العربي " التي طبعت بالفرنسية والعربية ...

(21)– أمين الخولي " التفسير " مقال نشر تعليقا على الترجمة العربية " لدائرة المعارف الإسلامية " جـ ٥ ص ٣٦٦؛ وقد نشر هذا المقال في كتاب للخولي بعنوان " مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب " الطبعة الأولى دار المعرفة ١٩٦١م، وأعيد نشره مرات في رسالة مستقلة عن " التفسير : معالم حياته – منهجه اليوم ".

(22)– قال هاملتون جب في مقال نشره عام ١٩٣٢م موجها المستشرقين في هذا " المنهج ":

" ... لكن الأجيال الإسلامية المعاصرة تحتاج إلى أكثر من هذا القول، فيجب أن نثبت لها أن لا شيء في القرآن من التناقض ولا من الباطل ....، وأن الفكر العلمي أو الروائي التاريخي المعاصر لم يكتشف شيئا يعارض سلطة القرآن وأوامره، لنصل بها إلى نتيجة لا تبلغها إلا إذا اعتمدنا على القول بأنه من كلام الله، وبأنه لا يجوز الخوض فيه قليلا أو كثيرا ....، فالمطلوب أساسا هو التأويل ... "

هـ. جب، الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ١٢٦، نشر مكتبة الحياة ١٩٤٥م ترجمة كامل سليمان.

(23)– ولعله مما له أكثر من دلالة أن نجد كتاب " تراث الإسلام " **The Legacy of Islam** " المنشور بالإنجليزية في أكسفورد عام ١٩٧٤م لجوزيف شاخت وكليفورت بوزورت ترجم إلى العربية وأصدره المجلس الوطني للثقافة بالكويت في ثلاثة أجزاء عام ١٩٧٨م، ثم أعيد طبعه عام ١٩٨٨ ثم طبع مرة ثالثة في جزئين عام ١٩٩٨م.

ومن هذا القبيل أيضا مجلة " هسبريس" " **HESPERIS** " التي أشرف المستشرقون الفرنسيون على إصدارها بالمغرب منذ عام ١٩٢١م، وأعيد طبع أعدادها في عقد الثمانينات ضمن سلسلة من المجلدات.

(24)– نشير هنا على سبيل المثال إلى كتيب نولدكه " ملاحظات نقدية حول الأسلوب والتركيب في القرآن " : " **Remarques critiques sur le style et le syntaxe du coran** " هو في أصله رسالة لنيل درجة الدكتوراه...

(25)– كتب الشيخ أحمد شاكر تـ ١٣٧٧هـ عن ذلك مقالة نقدية نشرت في مجلة " المقتطف" عدد دجنبر ١٩٤٤م ص ٤٦١– ٤٦٣– كما عرض للموضوع في تعليقه على مادة (حديث) ضمن " دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ٣٣٣– ٣٣٤.

(26)– انظر : دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ٣٣٣

(27)– انظر المرجع السابق جـ ٥ ص ٣٤٧ ..

(28)– Régis Blachère, « Du message au fait caranique » in Ency- universalis, corpus 6, pp 540-543.

(29)– د. محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ص ٢٠٠– ٢٠٢.

(30) – Encyclopaedia of Religion and Ethics Interpretation

(31) - The New Encyclopaedia Britannica

(32)– كاراديفو، مادة تفسير، دائرة المعارف الإسلامية جـ ٥ من ص ٣٤٦– ٣٤٨.

(33)– A.T. Welch, Al KURAN, in Encyclopédie de l'Islam, T5 pp 401-431.

(34) – Encyclopédie de l'Islam, Tome 5, pp 420-423.

(35) – Ibid, pp 423-428

(36) – Ibid, pp 428-429

(37)– انظر في الموضوع ما كتبه د. السيد أحمد خليل : دراسات عن القرآن من ١٢٧–١٤٣.

(38)– دائرة المعارف الإسلامية جـ ٥ ص ٣٤٨– ٣٧٤

(39) - The New Encyclopaedia Britannica, Vo : 22, p 1-43

(40)- The New Ency- Britannica, Vo : 22 ,p : 9

(41) – Encyclopaedia Universalis corpus 6, pp 540- 548.

(42) – Clément Huart , Wahb ben Manabbih et la tradition Judéo- Chrétiènne au Yémen, in Journal Asiatique, 10° série, tome 4, Septembre – Octobre 1904.

(43)– كان كلود كاهن مختصا في التاريخ، ومن أشهر مؤلفاته وأكثرها رواجا " تاريخ العرب والشعوب الإسلامية " ... ، أما شارل بيلا فمختص في الأدب كان موضوع أطروحته للدكتوراه عن " الوسط البصري وتكوين الجاحظ " وألف في " تاريخ الأدب العربي " ونشر للجاحظ " رسالة التربيع والتدوير " مع مقدمة بالفرنسية، وترجم له " البخلاء " و " التاج في أخلاق الملوك " ..

(44)– وإعجابهم ووقوفهم عند تفاسير " مدرسة المنار " دون غيرها من التفاسير المعاصرة راجع بالخصوص إلى دأبهم في البحث عن " مغمز " للنيل من علم التفسير ، فكان حرص محمد عبده وتلامذته على التوفيق بين القرآن ومعيطات المدنية المادية فما تعقبه هؤلاء... وانظر على سبيل المثال :

" Modern Commenatries" in " The New Encyclopaedia Britannica", Volume 22, p 9.

(45) – J. JOMIER, le Commentaire coranique du Manar, GP, Maisonneuve, Pais 1954.

(46) – J.M.S : Baljon " Modern Muslim Koran interprétation 1880-1960, Leyde 1961.

(47)– ومنهم على سبيل المثال كلود كايو الذي حرر مادة (تفسير) لدائرة المعارف الكونية ١٩٩٠م

(48)– جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي ص ١٧١

(49)– جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي ص ٢٢٩.

(50)– قال جولد تسيهر في مدح منهج المعتزلة وانحرافاتهم في التفسير وردهم للأخبار الصحيحة : "... والواقع أن المعتزلة يسلكون طريقهم الخاص في دائرة التفسير المتصل بالعقائد، فهم لم يبالوا هنا أن يزيلوا من طريقهم ركاما كبيرا من التصورات الشعبية والآراء المروية ، التي لا تتفق مع تصورهم المستنير للألوهية ..." مذاهب التفسير ص ١٣٥.

(51)– بلاشير، القرآن نزوله وتدوينه ... ص ١١٣، ونجد في كتيب " **Relire le coran** " لحاك بيرك – الذي كان ضابط أمن بالصويرة (المغرب) قبل أن يصبح مستشرقا – موقفا أشد تطرفا بخصوص دعوى تعدد معاني آيات القرآن " وانفتاحها على كل الدلالات " !!!

(52)- The New Encyclopaedia Britannica , V22, p 9

(53)– Clément HUART, "Wahb ben Monabbih et la tradition Judéo Chrétienne au yémen", Journal Asiatique, 10 Série, Tome 4, P 350.

(54)– جولد تسيهر، مذاهب التفسير ص ١١١– ١١٢.

ولسنا هنا نتبنى ما تضمنه " جامع البيان" من أخبار مسلمة أهل الكتاب وإنما نرفض أسلوب التعميم الذي لجأ إليه هؤلاء، ففي عصرهم لم يكونوا يعرفون من أمهات كتب التفسير إلا الطبري ولم تطبع بعد كتب غيره كابن أبي حاتم ولا تفاسير القرن الثاني كالصنعاني ...، وحتى " جامع البيان " لم يعرفوا منه إلا رسمه فاتجهوا إلى التعريض به ظنا منهم أنه المصدر الوحيد لهذا العلم عند المسلمين.

(55)– دائرة المعارف الإسلامية، مادة تفسير جـ ٥ ص ٣٤٧

(56) –" Commentaire du coran ", Abrégé, traduit et annoté par Pière Godé p : 10, avec préface de M. ARKOUN

(57) – Encyclopaedia Universalis, corpus 6 p 547- 548

(58)– لإبراز موقفهم مـــن المصحف الإمام قد يكون من الأفضل الاستدلال بكلام بلاشير في الموضوع حيث قال :"... كان المنطلق مصحف أبي بكر فضموا إليه مقطوعات مبعثرة أو محفوظة غيبا فقط، وتم أخـــيرا إخراج مصحف رسمي قصد الخليفة إحلاله محل جميع المصاحف الخاصة، على أن هذه الرغبة في إحـــلال نص ثابت ظهرت بتدبير كاد يكون هتكا للقدسيات : وهو إتلاف جميع المصاحف التي ســـجل عليهـــا الصحابة الوحي الذي جمع عن لسان محمد وفي حياته ". بلاشير، القرآن : نزوله وتدوينه ... ص ٣١.

(59)– اشتهر بتتبع فرق الباطنية المستشرق الفرنسي هنري كوربان، كما حاول جولد تسيهر قبله أن يقف على شيء من ضلالات الباطنية وما ادعوه من زيادات في المصحف، وانظر مبحث " الزيادات على النص العثماني عند الشيعة " ومبحث " مصـــاحف كتبت في عهـــد عثمان باقية في عدة مواطن " ... ضمن : مذاهب التفسير ص ٢٩٤– ٢٩٨. وانظر أيضا كلام بلاشير في ذلك ضمن : القرآن نزوله وتدوينه ... ص ٣٤– ٣٧، وضمن مادة (قـــرآن) في : **R. Blachère, "du message au fait coranique", Ency- Universalis T6, P 540**

(60)– بخصوص هذه النقطة يمكن الوقوف على الاختلاف الشديد الذي وقع فيه " ويل و " نولدكـــه " و " بلاشير " فيما بينهم من أجل ترتيب القرآن حسب النزول كما نقل عنهم ذلك في :

L'Encyclopédie de l'Islam, 3ème ed. 1986, Tome 5 P 418.

بل إن بلاشير عمد إلى ترجمة القرآن إلى الفرنسية مع ترتيبه على النزول ونشره في باريس بين ١٩٤٧– ١٩٥١م، لكنه اضطر بسبب ما صادفه أثناء عمله إلى إعادة نشر ترجمته على الترتيب التـــوقيفي عـــام ١٩٥٧م.

(61) – C. Gillot, l'éxège du coran, in Ency- universalis, Corpus 6P 547.

A.T . Welch, AL KURAN, in Ency- de l'Islam, Tome 5, P 407-408.

(62) - C. Gillot, l'éxège du coran, Ency- universalis, corpus 6 p 548.

J. Burton, the collection of the Quran, Cambridge 1977

(63)– بلاشير، القرآن : نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره ص ٣٤.

(64)– بخصوص هذا الموضوع يرجع إلى مادة (حديث)التي حررها جوينبل للطبعة الأولى من " دائرة المعارف الإسلامية " مع تعليق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله جـ ٧ ص ٣٣٣ وما بعدها.

(65)– أجدني مضطرا لأن أسوق هذا النص رغم طوله حتى تتبين للقارئ حقيقة موقف المستشرقين من أحاديث التفسير عامة ومن علم الإسناد بصفة خاصة ..

(66) – C. Gillot, Le coran et les recherches contemporaines, Ency- universalis, corpus 6 p 548.

(67)– بخاصة حين نعلم أن المستشرقين نشروا كتاب " الإتقان في علوم القرآن " وهو يتضمن مباحث عرضت لأصول التفسير، لكن يظهر أن وراء نشر هذا الكتاب مآرب أخرى سنعرض لها لاحقا، وقد نشر المستشرقون كتاب " الإتقان " في القرن التاسع عشر الميلادي...

(68)– Encyclopaedia universalis, corpus 6 p 547

(69)– سبق أن جمعت مختلف دعاوى المستشرقين عن الموضوع في دراسة عنوانها :

" مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن " نشرتها مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الكويت – العدد ٣٨ (ربيع الآخر ١٤٢٠هـ) ص ٦١-١٥٩.

(70)– انظر في الموضوع رسالة " الشريعة الإسلامية " لجوزيف شاخت ت ١٩٦٩م، ضمن كتاب " تراث الإسلام " جـ ٢ ص ١٤٤ ... نشر سلسلة " عالم المعرفة " الكويت، وكان شاخت قد أنفق عمره من أجل الترويج لفرية أن دين الإسلام لا يتضمن أحكاما وتكاليف شرعية وإنما هي من اختلاف الفقهاء في شتى العصور وانظر أيضا :

- J. Schacht, la loi et la justice, in Encyclopédie générale de l'Islam, traduction française, ed. S.I.E.D.

(71)– انظر على سبيل المثال : مذاهب التفسير ص ١٤ هـ ١، ص ٢١ هـ ٣، ص ٢٣هـ ١ ، ص ٢٤ هـ ٢..

(72)– انظر في الموضوع مقدمة " الإحسان في تعقب الإتقان للسيوطي " لعبد الله بن الصديق ت ١٤١٣هـ نشر دار الأنصار القاهرة.

(73)– يمكن للقارئ أن يلاحظ كيف ظلت أغلاط جولد تسيهر في مجال القراءات التي يجهلـــها تتكـــرر في مختلف كتابات المستشرقين، ونفس الشيء نصادفه بخصوص تقسيم اتجاهات التفسير بالرأي حيث لازال كلام تسيهر يتردد في الإنشائيات الاستشراقية؛ ومما له أكثر من دلالة أن آرثر جفري لما نشر " مقدمتان في علوم القرآن " عام ١٩٥٤م أشار إلى اعتماد نولدكه وشوالي وبراجستراسر على هاتين الرســالتين، وأرى أنه لو كان الأمر كذلك ... ما أغنى هؤلاء المستشرقين عن الكلام في " أخطاء المصحف العثماني" ضمن كتابهم المشهور عن " تاريخ القرآن ".

(74)– " علم دراسة المجتمعات البدائية " أو الأنثروبولوجيا يبحث في أساطير الجماعات البشرية التي لم تؤثر فيها التغيرات الاقتصادية والاجتماعية الحديثة، ويريد المستشرقون واتباعهم إسقاط هذا " العلم " علـــى مجال الدراسات القرآنية وبالخصوص على موضوعات مثل : قصص الأنبياء وتاريخ الأقوام السابقين الذين تحدث عنهم القرآن وأيضا موضوع اعتقاد المسلمين بالمعاد ونعيم الجنة وعذاب النار وما إلى ذلك مـــن أصول الاعتقاد بالغيب !!!

(75)– من هذا على سبيل المثال ما جاء في كلام ويلتش عن الوحي ونزول القرآن حيث ادعى أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته كان يفتش بنشاط عن تعاليم التوراة لأخذها من يهود يثرب، ودليلـــه علـــى ذلك أن القرآن تكلم عن إخفاء اليهود للتوراة لكن بعضها وصل إليه وإلى صحابته، وقد استند ويلتش في هذه الدعوى إلى فهمه الخاص وتفسيره لقوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نـــورا وهدى للناس تجعلونه قارطيس تبدونها وتخفون كثيرا ...) سورة الأنعام الآية ٩١. وانظر :

A.T. Welch, AL KURAN, in Encyclopédie de l'Islam, Tome 5 P 404

(76)– لتصور مقدار ذلك الجهل أذكر مثالا يتعلق بالمستشرق ريجس بلاشير الذي وفد مع عائلته إلى المغرب عام ١٩١٥م وعمره خمس عشرة سنة، وفي المغرب أنهى تعليمه الثانوي وحصل على الإجازة في العربية (العامية) من جامعة الجزائر، وتدرج في سلك التعليم بالمغرب حتى عام ١٩٣٥م...، هـــذا المستشـــرق " المتخصص " في العربية الذي عاش بين أهل المغرب سنين عديدة يقلدهم حتى في لبس الجلباب التقليدي الذي أوصى بأن يكفن فيه ... نجده يقول عن عربية القرآن :" ... وقلما وجدنا بين الكتـــب الدينيـــة الشرقية كتابا بلبل بقراءته دأبنا الفكري أكثر مما فعله القرآن، فإنا معشر الاختصاصيين في الإســـلاميات

حتى ولو بذلنا جهدا وافرا لبعث الجو الذي نمت فيه دعوة محمد، نكتشف تنافرا يتعذر دفعه بين هذا الجو وبين الشكل الذي اتخذه المصحف : فأمام هذا النص الشائك بصعوباته، الكثير الغموض، المدهش بأسلوبه الإيجازي الذي يغلب عليه التمليح، نتوقف ملتمسين الفكرة الرئيسة التي تصل فيما بينها بمنطق كامل قصصا وشروحات يصعب الكشف عن ترابطها. " بلاشير، القرآن : نزوله وتدوينه ص ٤١ وأيضا " Ency- universalis, corpus 6 P 540

(77)– لذلك لم يكن غريبا أن يتحامل هؤلاء على أمهات كتب التفسير ويتعرضوا لعلم الإسناد، فاستيعاب مناهج التفسير يقتضي الوقوف في مجمل القرآن عند صحيح الآثار وما دلت عليه، ثم إعمال الرأي الشرعي في المشكل من الآيات، ومعرفة الآثار لابد فيه من اعتماد الأسانيد المتصلة، ومن عاب الأسانيد فهو ضرورة يطعن في رجال الحديث الذين هم شهودنا حتى الصحابة رضي الله عنهم الذين نقلوا الخبر، وهذه بدعة سببها محاولة المستشرقين الدعوة إلى نقض علوم الرواية عند المسلمين.

(78) لازالت " العلوم الإنسانية " تثير الكثير من الجدل والنقاش حول حقيقة هذه العلوم وميدانها ومناهجها، ولعل ذلك راجع إلى جنوح المشتغلين بها – في أبحاثهم – إلى الجدل والافتراضات والتعميمات هذا فضلا عن عدم اهتمامهم بالمسائل المنهجية وبخاصة المناهج التجريبية المتبعة في العلوم الطبيعية بالذات، وانظر في الموضوع د. جابر الحديثي، " أزمة العلوم الإنسانية " ضمن دورية الفكر العربي عدد ٣٧– ٣٨ ص ١٠٩– ١٣٧.

(79)– وفي ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء الآيتين ٤٥–٤٦ (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يومنون بالآخرة حجابا مستورا، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا...)، وقد عرضت لذلك في دراسة عن " آداب تفسير القرآن الكريم " ضمن مجلة دعوة الحق – المغربية – العدد ٣٤٣ ص ٣٠–٣٧.

(80)– يمكن الرجوع بخصوص هذا الموضوع إلى :

أديث كيروزيل، عصر البنيوية، الطبعة الأولى بغداد ١٩٨٥...

جون ستروك، البنيوية وما بعدها، ضمن سلسلة عالم المعرفة عدد ٢٠٧ عام ١٩٩٧م

(81)– انظر كلاما نفيسا للشاطبي في هذه القاعدة ضمن المباحث التي خصها للفتيا في كتاب الموافقات جـ ٤ ص ١٤٤– ١٤٥، دار الفكر بيروت بتعليق الشيخ محمد حسنين مخلوف.

(82)– يصدق هذا الوصف على بعض مشاهير المستشرقين مثل موريس ديمومبين تـ ١٩٥٧م وقد عاش طويلا بالجزائر وعلى غاستون فييت وقد قضى سنوات بالقاهرة ...، ونجد أستاذ المستشرقين الفرنسيين سلفستر دوساسي ت ١٨٣٨م يصرح عندما سئل عمن علمه اللغة العربية قائلا :" ...تريد أن تعلم إن كـان لي بعض الشيوخ الذين تعلمت عليهم العربية ؟ وإني لأستطيع أن أؤكد لك أن معلمي الوحيد كان الكتاب، وأنا لا أستطيع أن أحفظ بالعربية، ولا حتى أن أفهم ما يقال بهذه اللغة ، إذ لم تتح لي الفرصة في شـبابي للتكلم بالعربية ولا حتى الاستماع إليها " . د. محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربيـة في فرنسـا ص ١٤٩.

(83)– ولعله مما يستوقف الدارس أن يجد مراجع المستشرقين في الدراسات القرآنية تنحصر في كتب جولـد تسيهر وأمثاله وفي مواد " دائرة المعارف "، والحال أن المكتبة الغربية تزخر بالكثير من البحوث العلمية، يمكن أن نشير منها على سبيل المثال إلى عشرات الدراسات التي نشرها محمد حميد الله بشتى اللغـات اللاتينية لكن لا يستفاد منها.

المصادر والمراجع

- بلاشير، ريجس، القرآن : نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره، الطبعة الأولى ١٩٧٤، دار الكتاب اللبناني بيروت، نقله إلى العربية رضا سعادة.

- تسيهر، اجنتس جولد، مذاهب التفسير الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ، دار اقرأ بيروت، ترجمة عبد الحليم النجار.

- جوزيف شاخت وكليفوت بوزوت، تراث الإسلام، سلسلة عالم المعرفة الكويت، ترجمة محمد زهير السمهوري وحسين مؤنس وإحسان صدقي العمد.

- المقداد، محمود، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٤١٣هـ.

- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت الفندي وأحمد السنتناوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس :

▪ مادة (التفسير) لكاراديفو مع تعليق أمين الخولي.

▪ مادة (حديث) لجوينبول مع تعيقب الشيخ أحمد شاكر.

<u>لائحة المراجع الأجنبية</u>

- **Berque, Jacques, Relire le coran, Bibioltèque Albin Michel, Paris.**

- **Blachère, Régis, Introduction au Coran, 2ème ed, 1977, Maisonneuve et larose, Paris.**

Histoire de la littérature Arabe des origines à la fin du XV siècle de J.C, librairie d'Amérique et d'Orient, Paris 1980.

- **Claude Cahen et Charles Pellat, les études arabes et Islamiques, in Journal Asiatique, Tome CCLXI, année 1973, Paris.**

- **Godé pière, commentaire du Coran, Abrégé, traduit et annoté par P. Godé, éditions d'Art, Paris 1983.**

- **Huart, Clément, Wahb ben Monabih et la tradition Judéo-chrétienne au Yémen , journal Asiatique, 10° série, Tome 4,**

imprimerie national, Paris.

- **Noldeké, theodor, Remarques Critiques sur le style et la syntaxe du Coran, Maisonneuve, paris 1953, Traduction E.H. Bousquet.**
- **Encyclopaedia Universalis, Edition de paris, 1990.**
  - **Du message au fait coranique, Régis blachère.**
  - **L'exègèse du coran, Claude gillot.**
  - **Les recherches contemporaines, Claude Gillot.**
- **Encyclopédie de l'Islam, édition, E.J.BRILL, Leiden et G.P. Maisonneuve et larose, Paris.**
  - **AL KURAN, A.T. Welch.**
  - **Muhamad, F. Buhl et .T. Welch.**
- **The New Encyclopaedia Britannica, 15.T.H. Ed; Muhammad and the religion.**
  - **Qur'anic exegesis.**
  - **Modern commentaries.**